Orient. Seminar
UNIVERSITÄT
78 Freiburg/Br.
Inv.
Az 14/8

المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثامن بعد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٦ ٢٧ محرم سنة ١٣٦٥

صحيفة مهداة الى عاهل الجزيرة العربية بمناسبة زيارته الرسمية لمصر

سلامٌ على الصحراء

سلامٌ على البيد المترامية ، سلامٌ على الفيافي القاحلة ، سلامٌ على البسابس الملس ، سلامٌ على الرمال المجرودة الصمّاء ، سلامٌ على الصحراء .

سلامٌ على مهد الروح ، سلامٌ على مربية المدنيات ، سلامٌ على مقيمة الحضارات ، سلامٌ على موسى كليم الله ، سلامٌ على عيسى روح الله ، سلامٌ على محمد رسول الله ، سلامٌ على من رفعوا الروح فوق المادة وأقاموا صرح المدنية على الحرية والحب والتسامح ، وأذلوا المادة واستخدموها لحاجات النفس .

سلامٌ على من قدّسوا الاخلاق ، سلامٌ على من أدّوا رسالة العقل الاول واجب الوجود ، لهذا الوجود ، سلامٌ على الاشعة النورانية تلابس الاجساد الفانية لتتصل بالملإ الأعلى ، فتضل فيها المادة والماديات ، وتستشرف على القوّة والجبروت ، وتذل كل جبّار عنيد ، ظلاّم للعبيد

سلامٌ عليكم في عصر قنابل الذرّات ، وسلامٌ على المهد الذي أخرجكم الى هذا الوجود ، وجعل منكم رسلاً مختارين دون جميع الناس ، سلامٌ على الصحراء ، مهد الروح والروحانية ، ومنبت الحب والسلام والحرية

اسماعيل مظهر

مجمع اللغة العربية

في بعض مصطلحاته الحديثة

أطلعني صديق على قائمة من المصطلحات التي أقرَّها مجمعنا اللغوي في علم التشريح ، وقد سجلها مجلس المجمع في الدورة الحادية عشرة (١٩٤٤ — ١٩٤٥) فدرستها بلذة كبيرة وعلقت عليها تعليقات أقدمت على نشرها بعد الاحجام ، لسابق اشتغالي بمثل هذه المصطلحات في المجمع ، فخشيت أول شيء أن يؤوَّل نقدي هذه المصطلحات تأويلاً لا ينصرف الى الغرض الذي أرمي اليه ، ولا يطابق نيتي في نقدها . ولكن العلم تعاون واشتراك في الرأي . واني لآمل أن لا ينصرف الرأي الى غير ما أتوخاه من النظر في هذه المصطلحات .

(١) الشرايين الضَّالة : Aberrant arteries

أول ما استوقف نظري في هذه القائمة اصطلاح « الشرايين الضالة » . ولست أعرف هل هذه ترجمة بالحرف أم أخذ من المعنى ؟ أما الترجمة الحرفية لهذا المصطلح فهي الشرايين الزائغة . لأن الصفة aberrant إن أدت في بعض الأحوال معنى « الضال » ، فانها أبعد ما تكون عن هذا المعنى في هذا المصطلح . ذلك بأن الشرايين الضالة على حد قول المجمع هي في الواقع غير ضالة بالمعنى اللغوي المفهوم من الفعل « ضلَّ » . لأن الضالَّ هو الذي لا يستقر في مكان أو الذي لا يثبت على رأي . وقد سميت بعض المذنبات في علم الفلك الاجرام الضالة لأن أفلاكها غريبة ، ولأنها قد تغادر جو الارض فلا تعود اليه ثانية . فهي بهذا المعنى ضالة شديدة الضلال . والضال الهائم على وجهه لا يعلم أين يذهب .

(٢) شذوذ : Abnormalities of

arteries, lymph vessels, vascular system and veins

قيل في هذه المصطلحات « شذوذ : القلب ، والأوعية اللمفية (بالميم وهي اللَّنفية بالنون) والجهاز الوعائي والاوردة » والشذوذ مفرد وكلمة Abnormalities بصيغة الجمع فينبغي أن يكون مقابلها أيضاً بصيغة الجمع أي « شذوذات »

(٣) فوق الصرة : Above umbilicus

تحت الصرة : Below umbilicus

ورد المصطلح الأول في الصفحة الاولى من القائمة ، وورد المصطلح الثاني في الصفحة الرابعة ، وأثبت أمام كليهما لفظ « الصرّة » بالصاد . والصرة شيء مصرور عليه ، كصرة النقود مثلاً . أما السُّرة فهي تلك الهزمة المعروفة في البطن . والافضل أن يقال الصقع الشرسوفي لما هو فوق السرة ، والصقع الخثلي لما هو تحت السرة .

فقد قسم المشرحون البطن مناطق سميت « المناطق البطنية » abdominal zones : وهي ثلاث مناطق في مجال البطن يعينها خطان أفقيان يمر أحدهما بشرسوف الضلع التاسع ويسمى الخط الضلعي ، ويمر ثانيهما بقمتي العظمين الحرقفيين ويسمى الخط الحرقفي . وخطان رأسيان يمران برباط بوپرت من كلا الجانبين ، فيقسم مجال البطن ثلاث مناطق عليا ووسطى وسفلى ، وتسمى المنطقة الاولى : المنطقة الشرسوفية ويطلق عليها في الاصطلاح العلمي واحد من ثلاثة أسماء هي : (1) Subcostal zone (2) Epigastric zone (3) Regio Epigastrica

وتتضمن هذه المنطقة ثلاثة أصقاع هي :

(١) الصُقعُ الصُّقلي الايمن : Right Hypochondriac region

(٢) الصقع الشرسوفي : Epigastric region

(٣) الصقع الصقلي الايسر : Left hypochondriac region

والصقع الشرسوفي هو المعنيّ باصطلاح : Above umbilicus

والثانية : المنطقة السُّرية ، ويطلق عليها في الاصطلاح العلمي أحد مصطلحين :

(1) Umbilical zone (2) Regio mesogastrica.

وتتضمن ثلاثة أصقاع هي :

(١) الصقع القَطَني الايمن : Right lumbar region

(٢) الصقع السُّري : Umbilical region

(٣) الصقع القطني الايسر : Left lumbar region

والثالثة : المنطقة الخَثْليَّة ، ويطلق عليها في الاصطلاح العلمي أحد مصطلحين :

(1) Hypogastric zone (2) Regio Hypogastrica

وتتضمن ثلاثة أصقاع هي :

(١) الصقع الاربي أو الحرقفي الايمن : Right inguinal or iliac region

(٢) الصقع الخثلي أو العاني : Hypogastric or Pubic region

(٣) الصقع الاربي أو الحرقفي الايسر : Left inguinal or iliac region

والصقع الخثلي أو العاني هو المعنيّ باصطلاح : Below umbilicus

والمهم من كل هذا أن ما أوردنا من هذه التسميات هي المصطلحات الرسمية التي اصطلح عليها اصطلاحاً عالميًّا في التشريح بحسب تسمية (BNA) وهي مختصر :

Basle Nomena Anatomica : that is : Basle anatomical nomenclature

راجع معجم « ستدمان » الطبيّ ص ١٤٥

أما « فوق السرة » و « تحت السرة » فلا يجري مجرى المصطلح العلمي وانما يجري مجرى الكلام العادي لا غير .

(٤) نقرة الحق : Acetabular fossa

وقد أقرّ المجمع من قبل كلمة « هزمة» لتقابل fossa فما هو السبب في أن يُرجع عنها الى النقرة ؟ والهزمة كلمة غير جارية على الالسن ، بخلاف « النقرة » فهي مستعملة في كثير من المعاني وجارية على الالسن بما يجعل ادخالها مجال المصطلح العلمي أمرٌ غير مستحب .

(٥) الغدد العنقودية الانبيبية Acino-tubular Glands.

مثل هذه المصطلحات وما يجري مجراها ينبغي الأخذ فيها على غير ما جرى عليه المجمع حتى الآن . وكنت قبيل تركي العمل فيه ، قد أعددت فيها بحثاً نزعت فيه إلى الأخذ بقاعدة التركيب المزجي في بناء مثل هذه المصطلحات . والتركيب قاعدة جرى عليها كل علماء الغرب على اختلاف ألوانهم وعلى متباين مجال درسهم .

وجرى العرب بعض الشيء على هذه القاعدة ودرسناها في المدارس وجيء عليها ببعض الأمثال القليلة . ولكن الضرورة العلمية تلجئنا الآن إلى الاكثار من المصطلحات التي تتخذ فيها هذه القاعدة سبيلا إلى صوغها في الطب والفلسفة خاصة. فاذا صادفنا مثل هذه المصطلحات المركبة في اللغات الأوربية ركبناها أيضاً في لغتنا، فذلك مما يسهل النطق والإعراب ويلبسها ثوب المصطلح العلمي فنقول مثلا .

الغدد العنْقودَنيوبيَّة ، والمفصل الأخرمْترْقوى في المفصل الأخرمي الترقوى ، وفي العَضَلة الفلكية اللامية mylohyoid الفكيلامية ، وفي اللفائفي القطني Ileo-lumbar لفائفيقَطَني وفي اللفائفي القولوني Ileo-colic لفَائفيقوْلوني ، وفي القصيّ ترقوى Sterno-clavicular قصّيترْقوى ، وفي العضلة القصية اللاَّمية Sterno-hyoid العضلة القصيلامية وفي قصي درقي Sterno-thyroid قَصيدَرَقي ، وفي قصي ضلعي Sternocostal قصيضلعي وفي قصي نَخذي Sternocoxal قَصيفَخذي ، وفي شبيه بالقَصيّ : شبْهقُصَيّ Sternoid وفي قصيّ فكيّ Sternomaxillary قَصيفكيّ ، وفي قصي لوحي أو قصي كتفي Sternoscapular قَصيلَوْحي أو قصيكَتفي ، وفي درقي حنكي Thyreopalatine درقيحنَكي ، وفي درقي مريئي Thyreo-oesophageus دَرَقيمَريئي . كما نقول في الشبه دائري Semi - circular شبهدائري وفي الشبه مخروطي Semi-conical شِبهمَخروطي وفي شبه ثمروخي Thyrsiform شِبْهشُمْرُوخي وهكذا . فان ذلك الاختصار من لازمات العلم في هذا العصر وانفراد العلوم بمصطلحات لها طابعها الخاص ألزم ما يكون .

(٦) المغزل اللالوني : Achromatic Spindle

وليس المقصود بهذا الاصطلاح المغزل المعروف ، وإنما المقصود به « الوشيعة » وهي تلك البكرة المعروفة البيضية الشكل التي تجري رواحاً وجيئة لتلحم بين خيوط المنسوج . ولقد سمي كثير من مصطلحات الطب وعلم الأحياء بالوشيعة أخذاً بالمشابهة . فالمغزل خطأ ، والوشيعة أي وشيعة النسّاج هي الكلمة الصحيحة.

(٧) الجناح الفُصَيْصي المخيخي المركزي Ala lobuli centralis cerebelli

والصحيح أن يقال الفُصَيْصي الرَّنْحي المركزي ، فان كلمة الرنح في اللغة العربية نَصٌّ صَريح في cerebellum : في القاموس : الرَّنْحُ الدَّوَّار ونحو العُصفور من دماغ الرأس بائنٌ منه (ص ٢٢٣ : ١) فلا مناص إذن من أخذ هذه الكلمة الفصيحة لتدل على هذا العضو وهي فيه نصٌّ لا يحتاج إلى تأويل ولا تجوُّز .

كذلك ورد في ص ٣ من تلك القائمة مصطلح «لوزة المخيخ» Amygdala of cerebellum . فهي إذن « لوزة الرَّنح » . أضف إلى ذلك أننا نحتاج الى كلمة المُخَيخ (تصغير مخ) لنطلقها على مصطلح pro-cerebellum

(٨) الأَعْـوَر Caecum

الأعور ويقصد به الزائدة الدوديَّة Vermiform appendix أو كما يُلَتِّنُها البعض : Appendix Vermiformis هي نصًّا المِـمْـرَغَة في اللغة العربية : ففي القاموس (ص ٣:١١٣) والمِمْـرَغَـة كمِكنسةٍ المَـعَـى الأعور كالـكيس لا مَـنْـفَذُ له يُـرْمى به . اه

فينبغي إذن في مثل هذه الأحوال أن نأخذ بالنص الأصلي لأن « الممرغة » هي المصطلح والمعى الأعور هو الشرح . فاذا قلنا الأعور فـكأننا أخذنا كلمة من شرح المصطلح وتركنا النص فيه .

(٩) مسلك Duct والمسالك البولية : Fibre tracts

أخذ المجمع كلمة مسلك لتدل على كلمتين أعجميتين هما Duct و Tract ، والأصح أن يقال في الأولى قناة أو قنية . أما اصلح كلمة تقابل الثانية فهي « درب » وهي الطريق النافذة ، كما قيل « رَدْبٌ » في Diverticulum وهي الطريق لا منفذ لها .

(١٠) خط الحديبتين : Intertubercular line

مسطح الحديبتين : Intertubercular plane

إن كلمة — inter كلما وردت في مصطلح علمي أفادت معنى «بَـين» أو «بيْـني» وترجمته الصحيحة الخط البيني الحديبي ، وعلى مذهبي في التركيب البينيحديبي ، والثاني كذلك .

(١١) في الناحيتين الحرقفيتين : In Iliac regions

لأول مرة في التاريخ يرد حرف جرٍّ في مصطلح علمي . فما معنى اثبات الحرف — in — في هذا المصطلح . ولماذا يقال الناحية وأصلها الأعجمي region وفي العربية « الصُّـقع » وهو أصلح من الناحية . فاذا قلنا ناحية القطب الشمالي التبس علينـا الأمر : أنقصد القطب نفسه أم اتجاهه . فاذا قلنا الصقع القطبي حددنا الغرض وبينا القصد . والأفضل أن يقال الصقعان الحرقفيان . أما حرف الجر فهو هنا كالنقطة السوداء في الغرة الناصعة البياض .

(١٢) فكيّ : Maxillary

يتعلق بهذا المصطلح ثماني مصطلحات تجري في العلوم الطبيعية وبخاصة في علم الحيوان الوصفي ، أو ما يدعوه المحدثون علم التاريخ الطبيعي ، وعلم المواليد كما سماه القدماء . وهذه

المصطلحات هي : (١) فك علوي (٢) فك سفلي (٣) فكي علوي (٤) فكي سفلي (٥) قبيل الفك العلوي (٦) قبيل الفك السفلي (٧) دوين الفك العلوي (٨) دوين الفك السفلي . وهذا مقابلها الأعجمي على الترتيب :

(1) Maxilla (2) Mandible (3) Maxillary (4) Mandibular (5) Premaxillary (6) Premandibular (7) Submaxillary(8) Submandibular.

ولقد عانيت من قبل مشقة كبيرة في ادخال هذه الجمل في سياق عبارات عربية تدعو الضرورة الى التبدل منها بمصطلحات محدودة المعنى بينة الغرض . وهذا ما وصلت اليه .

(١) الحَكَمة : Maxilla : نستعيض بها عن الفك العلوي . لا سيما وان كلمة «فك» التي أثبتها المجمع أمام هذا المصطلح لها مقابل هو « jaw » . والمقصود هنا الفك العلوي نصًّا في اللغات الأجنبية .

وفي المخصص : حَكَمة الوجه مقدَّمه ؟ والفك الأعلى هو مقدم الوجه فهو الحكمة .

(٢) الضَّبة : mandible : وفي لسان العرب (٢:٢٩) الضَّبَّة حديدة عريضة يضبب بها الباب والخشب والجمع ضباب . قال أبو منصور يقال لها الضَّبة لأنها عريضة كهيئة خلقة الضَّب . اهـ

والفك الأسفل هو الذي يُضَبِّبُ الحنك ، أي يقفله ويسده . وقد جرى العوام على هذا فسموا الفك الأسفل الضَّبَّة ، فاذا أصيب فيه قال أصيبت ضبتي ، فاذا أصيب في فكه الأعلى قال أصيب وجهي ، بغير تحديد .

إذا أخذنا بذلك استطعنا أن نضع لهذه المصطلحات الأجنبية أخرى عربية تقابلها، بحيث ترضي غرض الاستعمال اللغوي العلمي ، وخرجنا بذلك من مأزق أسلوبي كثيراً ما يقابلنا مثله في سياق البحوث العلمية . واليك ما أخذت به في هذه المصطلحات وأجري عليه في جميع مترجماتي .

الحَكَمَة	Maxilla	حَكَمي	Maxillary
قُبَيْليحَكَمي	Premaxillary	دُوَيْنيحَكَمي	Submaxillary
الضبة	Mandible	الضَّبِّي	Mandibular
قُبَيْليضَبّي	Premandibular	دُوَيْنيضَبّي	Submandibular

اما أن يثبت المجمع كلمة « فك » وأمامها Maxilla والمفروض فيه أنه يضع معجماً علميًّا في اللغة العربية ، فذلك ما ينبغي أن يحترز منه أشد الاحتراز .

(١٣) شاخصة Process وناشزة Protuberance

أثبت المجمع أمام المصطلح الثاني كلمة ناشزة، وأصلح شيء له « نتوء » . فالناشزة أو الشاخصة هي أفضل ما يقابل لفظ Process لأنها تدل على نواشز أو شاخصات أصلية في تشريح الجسم كبعض العظام مثلاً . أما Protuberance فقد تدل على نَمَوات غير أصلية فيقال مثلاً نتوء حَلَمِيّ ولا يقال ناشزة حلمية لهذا ينبغي أن تقول ناشزة أو شاخصة في Process ونتوء في Protuberance وحَيْدٌ في ridge .

(١٤) جمجمة قاربية : Scaphocephalic skull

والصحيح أن يقال « الجمجمة المُصَفَّحَة » فهي نص في هذا المَعنى . ففي المخصص (٦١ : ١) ومن الرءوس المُصفح ، وهو الذي ينضغط من قبل صدغيه فيطول ما بين جبهته وقفاه ، وانشد : فيهنَّ تصفيح كصفح الزّورق. اه .

وهذا نص في هذا المصطلح . واذا كان لا بد من ترك النص الى الترجمة فنقول « الزورقية » فهي خير من القاربية لفظاً ومعنىً وأمرنا الى الله .

(١٥) شَدْفةٌ : Segment

وفي القاموس (١٥٦ : ٣) وشَدَفه يشدِفه قطعه شُدْفَة شُدْفة بالضم قطعة قطعة. اه . والمعنى هنا القطع والتقطيع ، والمقصود بكلمة Segment الفِلْقة ، فقد يكون العضو فلقتين أو فلقات ولكنه غير مقطَّع . وكذلك في Segmentation وهو التفلق ويدل على كون الشيء مفلقاً فلقة بعد أخرى والكل متصل، ومفلق Segmented لا يقصد منه أنه مقطع إرباً . فالشدفة هنا لا تدل على المعنى الاصطلاحي لا لغوياً ولا علمياً .

وقد جرى المدرسون والكتاب على استعمال فلقة . فلماذا يعدل عنها وهي صحيحة ، الى غير صحيح . وهو فالق الحب والنوى : أي جاعله فلقاً متصلة غير مقطعة . والنباتات ذوات الفلقتين لا تتقطع بزورها إرباً عند الانبات وانما تتفلق ويخرج من كلٍّ من الفلقتين شيء وحده .

هذه ملاحظات عنت لي من درس بضع صفحات هي عشر عداً . واقد وفق المجمع التوفيق كله في بعض مصطلحات كقوله « غلالة » في Tunica وغيرها . ولولا أني متصل بالروح بعمل المجمع لما عنيت نفسي هذا البحث . ولعلي أحظى من أساتذتي الكرام أعضائه، بالكثير من سماحتهم وعفوهم عما أكون قد أخطأت فيه .

اسماعيل مظهر

حول قضية العلم

العلم الالمانى

أصوله ومراميه

ليس العلم خيراً كله ، ولا يقصد العلماء دائماً خير المجتمع وسعادة الانسانية . وان تنسى الانسانية ، مهما تطرفت في تحيزها للعلم وايمانها برسالته ، ان العلم قد شحذ أسلحة الحرب الحادة ، وافتن في ابتكار أقواها فعالية ، وأبعدها أثراً في ازهاق الأرواح ، وطمس معالم الحضارة .

ولا يفوت العين اليقظة الواعية سبق العلم الألماني الى الاخلاص في هذه الخدمة الوحشية الآثمة ، وتفوقه في هذا المضمار تفوقاً حفز رجال الفكر بعد ان رأوا الانسانية تصلى بنيران الصواريخ العمياء ، والقنابل الطائرة ، وأراغين الشياطين ، الى أن يعيدوا النظر في خدمة العلم المجتمع ووظيفته فيه . ويدرسوا أصول العلم الألماني ومراميه ، وأسباب انصرافه الكلي الى تعزيز الجيوش المحاربة وتعضيد الصناعة في ميادين التنافس التجاري .

وهذا الفصل عرضٌ سريع للظروف التي نشأ فيها العلم الألماني ، ونما وترعرع واشتدَّ ، وللاهداف والأغراض التي رمى اليها ولاة الأمور في ألمانيا عندما تبنوا الحركات العلمية وشجعوا البحث العلمي .

كانت المانيا حتى مطلع القرن التاسع عشر تحيا تحت ظل النظام الاقطاعي . وهو نظام زراعي لا يميل حكامه الى الصناعة والتجارة والعلم . وكانت مقسمة دويلات صغيرة لا يمكنها أن تجلي في ميدان التنافس التجاري لقلة مواردها ، وندرة اليد العاملة فيها . وأكثر من هذا ان الحروب والمشاحنات الدينية بينها قضت على كثير من العلوم والفنون . فمرّ بالاكاديمية الالمانية دور كان فيه العلامة المعروف ليبنتز قوامها وحده . ولكن هذا التأخر العلمي لم يحل دون ظهور فلسفات مفصلة على مسرح الفكر ، بشرت بمبادىء القوة والسيطرة والطغيان . وأصبحت بعد ذلك وحدها ينبوع وحي للعقل الألماني تشحنه مبادىء ونظريات قبلية تؤمن بالنظام والقسوة والانسان الآري الاعلى . وكان خضوع المانيا الاقتصادي للأمم الاخرى

ضرورة حتمية لو تمسكت بأهداب النظام الاقطاعي . فطمحت للوحدة لتضم قوة الى قوة وثروة الى ثروة . وتزعمت بروسيا حركة الاستقلال ، واستطاعت بعد سلسلة من الحروب انتهت بحرب السبعين استطاعت ان تبني وحدتها على أسس قوية راسخة .

وفرضت الوحدة الجديدة قسطاً آخر من التفكير ، فكان لا بد لها من مؤهلات ومقومات ودعائم . لذلك اتجهت الانظار الى الغرب : الى انكلترا وفرنسا وغيرهما من الدول التي سمت في مدارج الحضارة ومعارج النور .

فشجع فردريك الأكبر مشاريع النقل والترجمة عن العلوم الفرنسية وأشرف على تأسيس المعاهد والمدارس . ومن هنا بدأ تشجيع الحكومات الالمانية للعلم . ولهذا كان يقوى ويشتد ويتقدم إذا حظى بتأييد الحكومة ، ويضعف وينحل ويبطىء كلما قطعت عنه يد المساعدة والامداد .

وتشوّفت المانيا الى تقليد الفن الآلي الصناعي الذي أتقنته انجلترا بعد جهاد طويل خلال قرنين من الزمان . ولما كانت صفحة الصناعة في المانيا بيضاء ناصعة ، تيسر لها أن تفاضل بين شتى السبل والأساليب ، وتنتقي وتختار منها ما هو أنسب لمصلحتها وخدمة أهدافها . وقد توفقت الى حدٍّ كبير في الاختيار ، ولم يبد الشعب أي مقاومة للنظم التي فرضت عليه لقرب عهده بالحكم الاقطاعي وحداثته في التعرُّف الى معنى الحرية وهو العمل تحت ظلالها . وأدارت دفة الصناعة ادارة حكيمة حازمة، جعلت في مقدور المانيا المتحدة بحكم ما وجدت تحت تصرفها من كنوز مذخورة ، وقوى عاطلة ، أن تنافس الصناعتين الانجليزية والفرنسية وتبزها رغم عراقتهما في العلم والقدم .

وظهر العلم أول ما ظهر كفعالية وطنية رسمية في المانيا . فلم نجد حكومة قبل ألمانيا تمد الى العلم كفًّا سخيًّا، وعوناً موفوراً ، كما وجدنا في ألمانيا . فالعلم في الأقطار الأخرى عاش وازدهر بجهود أفراد وجدوا لذتهم وسعادتهم في البحث دون أن تفكر الحكومات في تحويل هؤلاء الجنود المجهولين ، أو تطبيق نظرياتهم في خدمة الحكومة والشعب . وكان انشاء «مؤسسة القيصر ولهلم» فجر دور جديد لَعِبَهُ العلم، فقلب به أوضاع المجتمع، ووسع مدى امكانيات الصناعة ، وانحرف بالانسانية عن سبل السلام والتعاون والسعادة .

استوحت هذه المؤسسة برامجها وأغراضها من وحي وبرنامج وزير التربية الألمانية همبولدت (١٧٦٧ — ١٨٣٥) الذي أسس جامعة برلين . ومزج في مشاريعه وبرا التربيوية بين النور الفرنسي والتنظيم الألماني . وكان قد سبق فقال « ان منشئات جديدة تعنى بالبحث والكشف وحدها يجب أن تؤسس لتساعد الاكاديميات والجامعات العلمية».

وحوت هـذه المؤسسة أكثر من ثلاثين معهداً مكرَّساً للبحث . وقد نتبين عبادة الفرد والنزعة الدكتاتورية في أعمال المؤسسة عند ما نسمع فون هارنان يقول « ان هذه المؤسسة لاتبني المعهد ثم تبحث عن الرجل الصالح للعمل فيه؛ ولـكنها تعرف العالم النابه فتبني له المعهد».

هكذا مضى هذا النظام الفردي في سيره طويلاً ، فما يشتهر عالم وتجل بحوثه وتلمع مكتشفاته حتى تقيم له الحـكومة مختبراً خاصـاً تزوّده بكل الاجهزة الفنية، وتحيطه بالعدد الاكبر من المعاونين المختصين. وإذا توفي يخلفه عالم مرموق يستطيع أن يحل محله عن جدارة واستحقاق، أو يغلق المعهد ، أو يعدّل ليناسب عالماً آخر اختصاصه قريب من اختصاص العالم المتوفي. وبنيت منازل للعلماء في المؤسسة ، يلجأ اليها القادمون من الداخل أو الخارج ، فيجتمع قادة الرأي العلمي تحت صعيد واحد يتبادلون الرأي ويتناقشون في كل المسائل التي تظهر على مسرح الحوادث والبحث سواء في داخل المانيا أو في الاقطار الاخرى. وانتظم ورود الانباء العلمية الى المؤسسة ، وأصبحت محجة العلماء من كل حدب وصوب .

وما كان يعلن نبأ كشف أو اختراع إلاَّ وتدرس كل احتمالات تطبيقه في الصناعة ، وحل مشاكل الاقتصاد الوطني . وتتضافر الجهود على نقل هـذه الاحتمالات من حيز القوة الى حيز الفعل .

واستطاعت المؤسسة أن تفتّـق آفاقاً واسعة للبحث ، وتتيح فرصة البحث للمتخرجين والاساتذة الذين ضاقت بهم الجامعات . ولم تترك التطبيق العلمي تحت رحمـة القدر والحظ والثروة الفردية . فاشترك في تمويلها قبل الحرب الـكبرى وبعدها أصحاب البنوك وأرباب الصناعة والتجار والحـكومة . ومثل هذه المعاضدة المادية للعلم لم تعرف قبل في غير المانيا . لأن الصناعات في الاقطار الاخرى كانت تعرض عن تشجيع العلم ، إلاَّ عند توقعها الربح الوفير منه ، أو عندما تكرهها ظروف التنافس التجاري والتزاحم الاقتصـادي على ادخال العلم وتطبيقه . ومن هذه الشركات ما كان يشتري الاختراع ويحتكر تطبيقه، ثم يقتله في مهده لئلاَّ تفيد به الصناعات المنافسة .

لم يعان البحث الألماني هـذين الضغط والـكبت ، لأنه حكومي قبل أن يكون ملـكاً شخصيًّا يتصرَّف به الفرد كما يشاء . ولأن البحث جهد قومي مشترك يقصد أن يحقق للأمة بأسرها منافعها ومصالحها .

وامتاز العلم الألماني بظاهرة جـديدة لم يسبق اليها ، فتأكد الانسجام والتعـاون بين العلماء في الجامعات ومديري المصانع . فلغتهم واحدة تفضي بهم إلى التفاهم الـكامل والتـكافل الحر . في حين أن العالم في انكلترا كان مأجوراً يتناول جزاء ما قدمت يداه ، ومدير العمل

وأصحاب الصناعة يكدّسون الأرباح . وبينما كان مدير العمل في انجلترا رجلاً لا يفقه مسائل العلم ولا يعني بتطوراته ولا يتحدث بلغة العالم ، كان العالم في المانيا هو مدير العمل كما حدث مع ليبج وفون واشباخ وسيمنز .

وكان مدير المصنع يذهب بنفسه الى الجامعات ويشرح للعلماء هناك تطورات الصناعة والمشاكل التي تجابهها ويلفت الأنظار اليها . كما إن العالم في الجامعة كان يذهب بالحلول المقترحة الى المصانع ويشرف على تطبيقها . ويوحي الى الخبراء بالسبل التي يستغلون بها اكتشافاته الجديدة . وهكذا كان صاحب رأس المال ورجل الادارة والخبير الفني يتساندون ويتساوون في المرتبة دون أن تطغى شخصية على أخرى وتستأثر بالربح والمغنم .

فتقدمت الصناعات الكيميائية والصناعات الفولاذية الثقيلة تقدماً سريعاً حتى احتكرت السوق العالمي وصدَّرت الى انجلترا نفسها نسبة عالية من منتوجاتها .

وأنتج فيض الانتاج حاجة المصانع الى الأسواق التجارية . وفتح الاسواق يفضي الى استعمال القوة والاستعمار في ما وراء البحار . ولما كانت الدول الأخرى قد سبقت المانيا إلى احتكار هذه الاسواق ، ولما كانت أحلام السيطرة والقوة التي غرستها الفلسفات القديمة في العقول تشيع وتقنع الأمة بوجاهة مطالبها ، وضرورة تأمين مجالها الحيوي ، كان لا بد من شن الحرب وابتداء الاستعداد للحرب العالمية الأولى .

قال هرنك منذ سنة ١٩١٠ « ان الدفاع المسلح والعلم، ركنان قويان يدعمان عظمة المانيا لذا يجب ألاَّ تنقطع العناية بهما أو تفتر .. »

فعند ما زحفت الجيوش الألمانية كانت قد ألقت ظهرها الى حصن حصين ، ومعين لا ينضب من القوة العلمية الفعالة ، وضربت هنا وهناك بأسلحة قوية فتاكة ، وكسبت بسرعة المبادرة في الهجوم ، وأحرزت انتصارات حاسمة كانت ستفتح العالم في وجه الاستعمار الألماني وتلقي خيرات الأرض على أبواب القيصرية ، لولا أن الحلفاء أدركوا سر النجاح . وقلدوا الانتاج العلمي الألماني واستطاعوا بما توفر لديهم من المواد الخام ، والقوة العاملة ، والأموال الطائلة ، أن ينتقموا ويدافعوا بنفس السلاح. ومع ذلك وجد الخبراء من إحصاء خسائر الفريقين المتحاربين أن الالمان خسروا رجلاً واحداً مقابل رجلين من الحلفاء ، وخسروا طائرة واحدة مقابل ست طائرات من اسطول الحلفاء الجوي ، واستطاع العلم أن ينقذ المانيا من هزيمة عاجلة، فابتكر « برجيس » طريقة لتحويل الزيوت المتنوعة وقوداً صالحاً لاستعمال الآلة الحربية. وابتكر هابر طريقة كهربائية رخيصة لربط آزوت الهواء بالايدروجين ، وصنع الآزوتات الضرورية لصناعة المتفجرات . وعند ذكر « هابر » أعظم علماء الالمان كما كانوا يلقبونه ،

تتناوب في النفس خواطر الاحترام والاكبار مرة، وخواطر الازدراء والاحتقار مرات. كان هذا العالم اليهودي جديراً بلقبه، لانه كان يدير دفة العلم ويوجه العلماء بسلطته المعنوية ونفاذ رأيه. آمن «هابر» بمستقبل المانيا المشرق، وتأكد من انتصار الجيوش في المعارك المقبلة، وتشبع بروح الغطرسة والطغيان وانغمس في خدمة الحرب حتى نسي رسالة العلم الانسانية، وأهمل الاستجابة لحوافز النفس النبيلة. فابتكر الغازات السامة السائلة وقضت غارة الغاز الاولى على (٦٠٠٠) قتيل في جبهة لا يزيد طولها على ستة أميال.

يستحق «هابر» الاحترام لان تحضير النشادر يقدم للتربة الجديبة حاجتها من الازوتات أو الاسمدة التي تزيد الغلة الزراعية، وتبعد شبح المجاعات المروعة عن ذهن الانسان. ولكنه يستحق كل الازدراء لاختتامه جهاده العلمي بتحضير الغازات، وملء أنسام الهواء برياح الموت القاتلة. وتشاء الحوادث والقدر الساخر أن يثبت بطلان حدس «هابر» وتخميناته، فانكسرت المانيا وفرضت عليها العقوبات والغرامات وأذلت الروح الالمانية اذلالاً كان رد فعله الحرب العالمية الثانية. وبانكسار المانيا، أذلت كبرياء «هابر» وعزة نفسه، وأمسى هدفاً صريحاً للاتهامات وضروب التحقير والتشهير. ومالنا نستطرد برواية قصة هذا العالم اليهودي الالماني، الحقيقة ان قصته تشبه قصة التاريخ الالماني كله.

استمرّ «هابر» في تشيعه للعلم، وسعيه لحمايته في المانيا، وأخذ على عاتقه جمع الاعانات والمنح المالية ليتيسر للعلم أن يثبت على أقدامه ويبدأ نضاله من جديد. فرحل الى أمريكا وخطب في المهاجرين الالمان، وأشعل فيهم من حماسته وثورته نيران السخاء والعطاء.

ولما ارتقى النازي دست الحكم، صبّ نقمته على الجنس السامي ممثلاً في اليهود. واحتقرهم وصادر أموالهم وأعدم زعماءهم وطرد علماءهم. وكان «هابر» بين المنبوذين المبعدين. ومن سخرية القدر أنه اضطرّ الى اللجوء الى البلاد التي عاداها بكل ما وسعت نفسه من حقد وانتقام، وأراق ماء وجهه وخرق حرمة العلم ليقهرها ويذلها. قبلته بريطانيا وعاش فيها. ووقع مرة أن أعلن رأيه في النظام النازي بحرية وصراحة اسخطتا الجستابو، فطلب اليه أن يشرح تصرفه. ولما كان مريضاً بقلبه صدمه الطلب صدمة عنيفة، فقضى نحبه بعد فترة وجيزة إثر نوبة قلبية مفاجئة. تشبه حياة «هابر» تاريخ المانيا. فكلاهما ابتدأ بنظام وحيوية وازدهار وانتهى بانهيار واذلال واحتقار.

وفي مرة واحدة لم يخضع العلم الالماني بعد أن وقف على أقدامه وسار قدماً لاوامر الحكومة ومطالب الاستعداد الحربي. وتقدمّ به هذا الطور في عهد جمهورية ويمر، فاذا كانت هذه الجمهورية ستذكر في التاريخ فانما تذكر انجاح العلم النظري الذي يبحث عن الحقيقة

المطلقة نجاحاً منقطع النظير في ظلالها . فظهرت نظريات النسبية والكم ، وأصبحت المختبرات الالمانية خير دعاية للعلم . واتضح للالمان بعد تحطيم نظامهم الاقتصادي قلق مكانتهم ، وسخف اعتقاداتهم الموروثة التي كانت في أذهانهم أحلاماً كباراً ، وباتت أشباحاً وأوهاماً . فقبض الزمن على أعناقهم بيد من حديد بعد أن كان يخيل اليهم أنهم أسياد الأرض ، وأسياد الزمن وصلحت هذه الفرص لأن يهدم مفكروهم الأحرار تلك المبادىء القبلية المتغطرسة ، المتعالية ويبنوا على أنقاضها مبادىء ديمقراطية انسانية نبيلة . ولـكن الضائقة الاقتصادية اجتاحت اوربا والعالم كله . فضاعت هذه الفرصة لأنه لم يكن في وسع المانيا البلد الذليل الفقير أن يتحمل اعباء الانهيار الاقتصادي الشامل . وأفضى الاحراج الطاغي الى الاخراج الفوضوي ، على يد الشباب المتحمس الذي سيرته عصبة هتلر وسخرته لتحقيق المثل النازية .

قامت النازية على مبادىء روحية عاطفية ، استأثرت بعقول الشباب ، وعبثت بتفكيرهم ، ومسخت الحقائق أمام بصائرهم . وما كان النازي ليسمح للعلم الحر أن يقوى ويشيع ، لأنه لا يمكن أن يجد الأسس العلمية التي تستند اليها النزعة العنصرية الجديدة . بشر النازي بنقاوة الدم الآري وأفضلية العقل الجرماني ، وان الحضارة لم تشيد ولم يعل لها صرح الا بفضل الجهود الآرية ، ومصير الانسانية معلق على هذا الجنس منوط به . وسيبلغ رسالته للعالم بعد أن يسوده بالتنظيم الدقيق والـكفاح المرير ، والحرب ضرورة حياتية لا بدّ منها ليصل الجنس إلى أهدافه ويتسنم ذروة السلطان والرفعة التي يستحقها .

ولـكن العلم الصحيح لا يؤمن بهذا الهذر ، فلم تره النازية ضرورياً في بناء ثقافتها وبعث النور الجديد . يقول هتلر في كفاحي « يجب أن تحوّر الأمة مركز ثقلها التربيوي الى خلق الأجسام الصحيحة قبل كل شيء . فحشر أدمغة الأطفال بالحقائق والمعلومات ، ورقي القوى الذهنية مهمان أهمية ثانوية . ان هدفنا الرئيسي رقي الاخلاق وبالأخص قوة الارادة وتحمل المسئولية ، ويأتي بعد ذلك بمسافة بعيدة التدريب العلمي » .

ومن هنا لم يهتم النازي بخسارة البلاد عندما اضطهد العلماء والاحرار من اليهود والألمان وطردوا من الجامعات ومختبرات البحث . فزاد عدد هؤلاء على الفي عالم بينهم الاخصائيون في علم الطبيعة والـكيمياء والرياضيات وعلم الحياة وعلم النفس وغيرها .

ولكن النازي أدرك أنه لن يحقق سيطرته على الأرض دون الاستعانة بالعلم لتدعيم الاقتصاد الوطني وتعزيز الدفاع المسلح كما قال هارناك . فأبقى على العلم العسكري ورصد الأموال الطائلة للبحث العلمي . وبلغت المخصصات أرقاماً هائلة وهمية . وسخر العلماء المؤمنين برسالته لتأدية هذا الواجب الـكبير .

أمحى من أذهان العلماء تحت ضغط النظام تقديس الحقيقة ومثل الحق والخير والجمال . وشاع التبشير بمذهب العنصر والأرض والدم والحديد. ووكل الى العلماء أن يشوّهوا وجه العلم باختلاق الحجج الواهية لتدعيم المبادىء المضللة، وتبرير نزواتها الممعنة في التدجيل والتهريج

وسأعطي مثلاً في طريقة العلم الالماني الجديد في مسخ الحقائق ، واحتقار نتاج العلم الخالد . يقول ستارك ... « عندما أتكلم عن نوعين رئيسيين من العقلية الطبيعية ، فانما أتكلم عن وعي واختبار وتدبر . درست كل الخصائص الذهنية التي ساقت العلماء الماضين الى الوقوع على استكشافاتهم فوجدت بعد دراسة أربعين عاماً ، ان كل العلماء الموهوبين ومؤلفي الكتب ومبتدعي النظريات ينقسمون الى فريقين : فريق تسيطر عليه العقلية العملية ، وعنها نجمت كل الكشوف الموفقة الخلاّقة في الماضي والحاضر . وهذه العقلية تنشد الحقيقة المطلقة والتيقن من صحة النواميس التي تتحكم في الظواهر الطبيعية المألوفة أو استكشاف الظواهر والحقائق المجهولة. وفريق ثان تسيطر عليه عقلية عقيدية Dogmatic ، وكم بين العقليتين من تباين واختلاف . فصاحب هذه العقلية يبتدىء بأفكار سابقة نشأت في ذهنه ، وبتعاريف وضعية تحدد العلاقات بين الرموز الرياضية — وتجد هذه الرموز دائماً تفسيراً طبيعياً — ويخلط هذه الرموز ويشتق بعد سلسلة من العمليات الرياضية المنطقية نتائجه على شكل معادلة ... هكذا صنع اينشتين عند ما ابتدع نظريته التي تقوم على تعريف وضعي لاحداثيات الزمان والمكان وتفاضلاتها ... وهذه النظرية مثل صادق لانتاج هذه العقلية العقيدية ... ومثلها نظرية شرودنجر في الميكانيكا الموجية . فهذا العالم وصحبه ، يجبرون الكهيرب على الرقص حول نواة الذرّة بشكل فوضوي عجيب ، فيظهر من الخارج كأنه في كل نقطة حول النواة في وقت واحد ، ويحمل شحنة كهربائية متغيرة تتناسب مع استدامته الزمنية في أي نقطة ..

لقد أخذت على عاتقي مقاومة هذه العقلية العقيدية ، لأنني متأكد من أثرها السيء الهدّام في تطور البحث العلمي الالماني . . وسأحصر كل جهودي في التخلص من الخطر اليهودي ، إذ وجدت ان علماء اليهود أظهر دعاة هذه العقلية وأوفى شارحيها. ولا بدّ أن تقودني هذه الاشارة الى وجهة النظر القومية التي يجب أن تسود أذهان الباحثين ... إن تاريخ العلم يقطع جازماً بأن مؤسسي العلم الحديث والمكتشفين العباقرة منذ جاليليو ونيوتن حتى يومنا هذا ، كانوا على وجه العموم من العنصر الآري ، وعلى الاخص من السلالة الشمالية (النوردية). ونستنتج حتماً ان رجال هذه السلالة يميلون ميلاً فطرياً الى التفكير العلمي العملي أما مؤسسو النظريات اللاهوتية الحديثة ودعاتها وممثلوها فينحدرون من أصل يهودي ... »

بمثل هذه الطريقة من المغالطة والتضليل والسفسطة سوّغ التعصب الأعمى لأحد علماء النازية أن يجعل الثقافة والفكر والعلم والاختراع وقفاً على سلالة بعينها . مع أن الأمم القديمة والوسطى والحديثة اشتركت جميعاً في بناء الحضارة العلمية الراهنة . ولم تحتكر أمة على طول مجرى التاريخ العلم والمعرفة لأن سيل المعرفة يجري مع الزمن فتصب فيه الروافد من هنا وهناك مياهها العذبة الصافية ، بحيث لا يمكنك التمييز والمفاضلة بين ماء جدول وماء رافد ، أو بين مآثر أمة ، ومآثر أخرى.

وفي هذا المعنى يقول العالم النازي لينارد . . « يعجبون أن نقول : العلم الألماني ... كان يمكنني أن أقول العلم الآري ، أو العلم الذي خلقته السلالة النوردية Nordic ، علم الذين سبروا أعماق الحقيقة ، علم الباحثين عن الحق ، علم مؤسسي العلم نفسه ، قد يجيبون العلم دولي وسيبقى دوليًّا ، ولكنني أقول: هذا هراء ، فالعلم كأي انتاج بشري آخر عنصري مرتبط بالدم . . »

هكذا احتقر الألمان تاريخ العلم وحقيقته . واتخذوا منه دعاية عنصرية تصب سمومها في بحر الروح الألمانية المتسامية . يقول هتلر أيضاً « يجب أن نجد من العلم واسطة ننمي بها العزّة القومية ، وسنعلم تاريخ العلم وتاريخ الثقافة في مدارسنا لنبلغ هذا الهدف . فالمخترع لا يكون عظيماً كمخترع فقط ، ولكنه عظيم كعضو فعّال في الهيئة القومية . والاعجاب بعمله الجليل ، يتحول فخاراً وشرفاً ، لأن ذلك العمل الجليل تمّ على يد أحد أفراد شعبنا . يجب وضع مناهج التربية ليخرج الشباب من المدارس ، لاديمقراطيين ولا محبين للسلام ولا غير ذلك ، بل ليخرجوا المانا بملء قلوبهم » .

إذن لم يعش العلم في المانيا الاّ ليعزّز الصناعة وينظّم الجيش ويزوّده بأسلحة الموت . وليس للمجتمع أي حق في أن يطالب بنصيبه في خيرات العلم ونعمه . فالمدفع أهم من الزبدة. والحاجات الحربية في الطليعة ، ولا يأتي بعدها شيء ، والأمة يجب أن تذعن لهذه الارادة التي أتاحها الحظ الحسن ، كما كان يخيل للناس ، لتنقذ ألمانيا من براثن العبودية ، وتمكن لها في الأرض . ويضع « أرنست كريك » غرض العلم الألماني بشكل أوضح عندما يقول : « ما هدف الثقافة الجامعية ؟ ! ليس العلم الموضوعي هدف التدريب الجامعي ، انه العلم العسكري المكافح ، انه علم الجنود الابطال » .

ويقول « برنارد رست » وزير العلم والتربية (الكلتور) : « يختلف العلم الجديد تماماً عن المعرفة التي يتسع مجالها ، وتزيد قيمتها بازدياد الجهد المنطلق لبلوغ الحقيقة ، فحرية العلم الحقيقية تصح عند ما يصير العلم أداة في بناء قوة الامة الحية ، وأداة في رسم مصيرها التاريخي ، وبعد ذلك يعرض طائعاً قوانين الحقيقة . . »

« البقية في آخر مكتبة المقتطف »

في مشكلات السياسة العالمية :

أساس القانون الدولي

وطبيعته ومستقبله

— ١ —

البحث في فقه القانون بوجه عام مطلب دراسي عسير المرتقى بعيد الشقة ، لأنه أمر يتضمن التغلغل في الأصول الأولى التي ترتدُّ إليها فكرة القانون أو صورته البدائية التي ارتسمت في عقلية الانسان . فهي دراسة ميتافيزيقية في جانب كبير منها أي أن شرحها وتفسيرها يعتمدان على التصوير الفلسفي القائم على التأمل المنطقي والنظر التجريدي ، وإن استمد القانون إلى جانب ذلك ، قواعد صياغته التشريعية ، من أحداث الواقع وسوابق العمل وتجاربه ، يضيفها إلى تراثه المتجدد ، بعد أن يطبعها بطابع الأقيسة المثالية العامة التي تحتمها طبيعته الفلسفية البارزة فيه .

ولقد هيأت معضلات السياسة الدولية وإشكالاتها المتعددة أذهان الناس ، ولا سيما خاصة المثقفين منهم لتناول العلاقة بين القانون والسياسة بالبحث والدرس ، ودفعتهم إلى ضروب من المحاولات وألوان من التأملات لتفسير ما عسى أن يكون ثمة من روابط السببية أو علاقات النسب والترابط بين منطقتي القانون والسياسة ، بيد أن فريقاً كبيراً من فقهاء القانون وثقات السياسة وعلماء الاجتماع ، قد انحاز إلى جانب تلك النظرية التي تقطع بأن ثمة ما يشبه الانفصال والتميُّز بين فقه القانون وفن السياسة ، فهما أفقان لا يلتقيان ، أو إن شئنا التحديد والتدقيق ، قلنا مع هؤلاء إن التفاوت ملحوظ في مستوى كل منهما إزاء الآخر ، فالقانون في مرتبة تعلو ، من وجهة التجريد وفلسفة الأخلاق ، (١) على مرتبة السياسة التي تلفّق فنها حسبما توحيه إليها الأحداث العارضة والاهواء المتقلبة والمصالح المتنازعة في كل زمان ومكان !

فاذا برزَ لنا العامل الأخلاقي راجح الكفة على سائر العوامل الأخرى المكوّنة للنسيج الفقهي ، رأينا من الناحية الأخرى ، أن أهم العوامل المسيطرة على فن السياسة هو

---

(١) Ethics

نزعة التحلل من عامل الأخلاق وإطراح وازع المُثُل التي يلحقها دُهاة السياسة ، من أصحاب النزعات المكيافيلية ، بعالم الخيال أو « اليوتوبيا » ، (١) ولا يرضون التقيد بها فيما يبثون فيه من مشكلات الدول وما ينظمون من علاقات الشعوب .

ويتجلى لنا هذا الموضوع في صورة أوضح ، عندما نحاول أن نحكم شئون السياسة الدولية بقاعدة القانون ، لنصل إلى تنظيم المجتمع الدولي تنظيما يقارب بينه وبين المجتمع الوطني (الدولة) ، ما استطاع المساهمون في هذا التقريب إلى هذا الغرض من سبيل ، فان الأمر ليكاد يفلت من أيدينا ، إذ نجد أننا بهذه المحاولة نكون قد نقلنا جوَّ السياسة المضطرب ومحيطها العاصف بالأغراض والأهواء إلى أفق العدالة الرفيع وأوجها القضائي السامق حيث تتساوى مراكز الشخصيات الآدمية والمعنوية وتتسامت أوضاع المراكز القانونية ، وتصبح المصالح والحقوق أمام عدل القواعد التشريعية في مرتبة سواء .

وقبل أن نأخذ في عرض جوانب هذه العلاقة وتحليل عناصرها ، نستهل البحث بدراسة تفصيلية لطبيعة القانون الدولي ووظيفته في محيط المجتمع الدولي وعلاقته بمشكلات السياسة العالمية ومدى توجيهه لمصاير هذا المجتمع في جو من العواصف والأعاصير .

طبيعة القانون الدولي

يختلف القانون الدولي عن القانون الوطني لكل دولة حديثة ، في اعتبار فقهي بارز . فاذا كان القانون الوطني له سلطة تصدره وتحميه وتنفذ قواعده بالجبر عند الاقتضاء ، فأن القانون الدولي ما زال فاقداً لهذا العنصر ، وإن دلت التطورات الأخيرة في محيط السياسة الدولية ، على انه سائر في طريق استكماله . والواقع أن المجتمع الدولي ما زال حتى عهد قريب جدًّا ، مجتمعاً صوريًّا افترض العرف الدولي وجوده وحاول تنظيمه بما اشترعه من القواعد والنظم وما اصطلح عليه من أوضاع العرف والعادة وما وعته حفظته من مأثور التقاليد .

وهكذا نجد أن القانون الدولي تعوزه العناصر الرئيسة الثلاثة التي تمنح القانون الوطني قوَّته وتحمي سلطانه ، وتهبه الجدة المتصلة التي تتمشى مع تطورات المجتمع واستحالة ظروف الحياة فيه .

فاذا بحثنا عن السلطة التشريعية في المجتمع الدولي ، أعيانا البحث ودخلنا في تفاصيل فقهية مرهقة ، وتيه من النظريات السياسية والاجتماعية لا أول له ولا آخر ! .

---

(١) Utopia

وهكذا الشأن اذا حاولنا أن نستبين مظاهر قاطعة تدلّل على وجود سلطتين للقضاء والتنفيذ بالمعنى الذي نفهمه في محيط المجتمع الوطني ، حيث تحتل هاتان السلطتان مكانهما التقليدي السابق ، وتؤثران تأثيرهما البعيد في حياة الأفراد والجماعات ، سلباً وإيجاباً (١) .

واذا طلبنا قدراً من التمديد والبسط لهذا الايجاز قلنا : —

أولاً — تعوز القانون الدولي محكمة قضائية يكون لها اختصاص الفصل في شتى ألوان النزاع الذي يقوم بين أعضاء المجموعة الدولية ، ويكون قضاؤها فيصلاً حاسماً للنزاع المطروح ، يُلزم أطرافه كما يُلزم القضاء الوطني أطراف الدعاوى المطروحة عليه للفصل في موضوعها .

وقد كان منشأ محكمة العدل الدولية الدائمة راجعاً الى عاملين اقتضاهما سير الحياة في هذا المجتمع ، أولاهما التحكيم ، وهو من أعرق نظم التقاضي التي عرفها التاريخ الانساني ، وثانيهما اتفاق دولتين أو مجموعة من الدول على طرْح أي نزاع يقوم بينهما ، على محكمة معينة ، هي في الأغلب محكمة دولية ، تكسب اختصاصها في الفصل بمقتضى هذا الاتفاق ، ويكون حكمها واجب النفاذ على من ارتضوا هذا الاختصاص .

ولقد جاء تحقيق فكرة المحكمة الدائمة للعدل الدولي ، بمثابة التأكيد المادي لهذا العرف والتوسع في تطبيقاته العملية في محيط الحياة .

إن انشاء هذه المحكمة لم يغير من طبيعة الخصائص التي تميّز بين قواعد القانون الدولي من مثيلاتها في مجموعات القوانين الوطنية ، ولم يترتب عليها غير خلق طائفة من الالتزامات تحملتها الدول التي قبلت الاحتكام الى هذا النظام .

ثانياً — ليس للقانون الدولي وسائط مادية حاسمة تكوّن له سلطانه التنفيذي الملزم الذي يستطيع أن يحمي قواعده بالجبر عند الاقتضاء .

وهو اذا أباح للمعتدي عليه أن يرد الاعتداء بممارسة الحق المخوَّل له في هذه الحالة ، فانما يكله في هذا الدفاع الى نفسه ، وفي حدود استطاعته ، ولا يستطيع أن يمد اليه يد المعونة الاجتماعية التي قوامها مجتمعٌ دوليٌّ حفيظ على حرمة الحقوق والواجبات ، كما يستطيع أن يمدها سلطان التنفيذ في المجتمع الوطني ليناصر أحكام القضاء برقابة جزائية ساهرة تؤكد سلطان العدالة وتحمي حرمتها إذا جارت عليها جوائر العسف والطغيان .

ولهذا يمكننا أن نقول إن الوسائل الجزائية التي نصت عليها المادة السادسة عشرة من ميثاق عصبة الأمم الماضية ، لم تكن في مجموعها سوى جزاءات أو عقوبات تأديبية تعوزها

---

(١) أي من ناحية الحق والواجب

السلطة التي تتكفل بفرضها أو تضطلع بتنفيذها عند الاقتضاء .

ثالثاً — كلنا يعلم أن من بين المصادر التي تستمد منها القواعد القانونية وجودها ما اصطلحنا على تسميته بالعرف أو العادة الى جانب مصدر التشريع من سلطة تملكه . والقانون الدولي في مجموعه لا يعرف غير المصدر الأول ، مصدر العرف والعادة ، ولا يكاد التشريع يحتل مكاناً بارزاً في ثبت مصادره ، لانعدام السلطة العليا التي تملك حق التشريع الملزم لمجموعة أمم المجتمع الدولي . وفي هذا نرى القانون الدولي يتفق مع قوانين المجتمعات البدائية التي لا تعرف في شريعتها غير احكام العرف والعادة . وليس يهمنا هنا ان نترسم الخطى أو ندرج مع التطورات الاجتماعية المتلاحقة التي صاغت من العرف والعادة قواعد سلوكية تلزم أفراد الجماعة ، فلعلّ هذا يكون أدخل في دائرة الدراسات السيكولوجية والاجتماعية المفصلة منه في دائرة البحوث الفقهية الخالصة . وعلى كل فان القانون الدولي تدرّج في هذه المدارج وانصهرت قواعده في بوتقة التقاليد والموروثات ، وانضاف الى تراثه المتجدد على مرّ الزمن ، ما صاغته الوقائع والأحداث والتجارب من قواعد جديدة وما وجهت اليه الأفكار من أهداف مثالية موموقة .

على أننا نستطيع أن نتبين بعض الخصائص التشريعية التي تكاد تنوب مناب سلطة التشريع الى حد ما ، في محيط الفقه الدولي ، في صورة المعاهدات التي ينعتها فقهاء هذا القانون بالمعاهدات المشرعة Traités-Lois (1) أي تلك التي تضع قواعد قانونية جديدة يلتزم بها أطرافها مهما تعددوا . ولكن هذا المصدر التشريعي ما زال مظنة شك واعتراض كبيرين لأن المعاهدة مهما يكن من أمر محتوياتها أو مجال تطبيقها في المحيط الدولي لازالت تعوزها الخصائص الجوهرية للقانون . فهي من حيث عموم القاعدة وشيوع التطبيق وعالمية الالزام ناقصة الى أبعد حد ، فقد يتفق أن يكون من بين أطرافها من لا يلتزم بذات الالتزامات التي تفرض على طرف أو أطراف آخرين ممن وقّعوا عليها .

ولقد بذلت محاولات عدة على مدى سنوات طويلة ، لادماج كثير من قواعد العرف التي تجري مجرى القواعد التشريعية الملزمة في صلب المعاهدات الثنائية او الاتفاقات الدولية العامة . ولكن هذه المحاولات لم تؤد الى نتائج ذات قيمة بسبب ما ذكرناه من أن المعاهدة مهما كان من شأنها أو مدى انطباق قواعدها على عدد كبير من الدول الملتزمة ببنودها ونصوصها ، لا تستطيع أن تمد رقعة سلطانها حتى تصل الى الدول غير الموقعة عليها لتخضعها لهذا السلطان . ويضرب فقهاء القانون الدولي مثالا للتشريع الدولي في صورة مؤتمر لاهاي

---

(١) وتسمى بالانكليزية Law-making treaties

الذي عقد في سنة ١٩٠٧ لوضع النصوص التشريعية الكافية لتنظيم قواعد الحرب ، ولكن هذا الاتفاق واضرابه لا يَرقى إلى أن تكون مصدر تشريع دولي عام ملزم ، فهو بطبيعة الحال لا يُلزم ، كالمعاهدة سواء بسواء ، إلاَّ أطرافه ، كما أن ثمة نقصاً فادحاً يتجلى في عدم إمكان التبادل في الالتزامات التي تشتمل عليها هذه الاتفاقات بين الدول الموقّعة أو مع بعضها ، بمعاهدات واتفاقات أخرى ، قد لا تخرج في نطاق اختصاصها ومدلول أحكامها ونصوصها عن مواد هذه الاتفاقات وبنودها !

ويمكن أن يقال إن الميثاق المرموز له باسم « بريان — كيلوج »[١] لمنع حروب العدوان بين الدول ، لا يمكن وصفه ، من وجهة الفقه القانوني ، بأنه عمل تشريعي بالمعنى المفهوم من اصطلاح « التشريع ». وحقيقة هذه الميثاق لا تعدو مجرد اتفاق أبْرِم بين عدد كبير من الدول ، تتعهد فيه بأن تذر الحرب وترفض الاستعانة بها كوسيلة من وسائل السياسة القومية في فض منازعاتها وحماية صوالحها في محيط المجتمع الدولي . وأن تنتهج سياسة ودية مسالمة في تصريف علاقاتها وشئونها بين بعضها بعضاً .

وهكذا نجد أن الاتفاقات الدولية ليست إلاّ « عقوداً »[٢] تبرمها الدول فيما بينها بوصفها من أشخاص القانون الدولي العام[٣] فالدول ، بهذا الوضع ، لا تشرّع قوانين دولية ، بوصفها قوة أو سلطة تشريعية دولية ، ومن هذا يسهل علينا أن نحكم بانعدام أي أثر لما يسمونه « التشريع الدولي » بالمعنى الفقهي الدقيق لهذا الاصطلاح .

بيد أن هذا القصور الملحوظ في قواعد هذا القانون ، لا يجرّد هذه القواعد من طبيعة « القانون » لأن لها كثيراً من خصائص « القانون » الجوهرية . وإذا كان للسياسة أثر مباشر في توجيه قواعد القانون الدولي ، فهو أثر مماثل لذلك الذي يربط بين السياسة والقانون الوطني في كل دولة ، أي ان العلاقة بين « القانون » والسياسة ووثاقة الصلة بينهما في المحيط الدولي ، لا يمكن أن تجرد هذا القانون الدولي العام من خصائص « القانون » وملامحه.

(للبحث صلة)

صلاح الدين الشريف

المراجع :

(1) Krabbe, The Modern Idea of the State.
(2) Zimmern, International Affairs XVII (January – February, 1938)
(3) International Conciliation (December 1944 : No 406; January 1945 : No 407.)

---

[١] The Briand-kellog Pact.

[٢] Contrats

[٣] فهي بهذا الوصف تملك أهلية التعاقد التي مظهرها ابرام المعاهدات والاتفاقات

الرأي العام الاجتماعي

في مصر

وكيف يجب أن يكون ؟

نشر الأستاذ سلامة موسى في المقتطف ، الجزء الأول من المجلد ١٠٧ ، مقالاً تحت عنوان « الرأي العام الاجتماعي وكيف نكوّنه في مصر » . فحدد صاحب المقال ، الشرطين التاليين :

١ — القدرة على الدرس بتوافر الوسائل للتعليم والاستنارة .

٢ — والقدرة على الافصاح بتوافر الوسائل للتعبير عن الرأي ، واعتبرهما شرطين أساسيين لتكوين الرأي العام الاجتماعي ، وبالتالي لتكوين الرأي العام المصري ، وجاء في المقال ما معناه : «ان في الأمم الديكتاتورية وسائل عديدة للتعلم ، ولكن النظام الديكتاتوري يحول بطبيعته كنظام استبدادي ، بين الأفراد وبين التعبير عن آرائهم . بينما حرية التعبير عن الرأي متوفرة في كثير من الأمم الاسيوية ، ولكن القدرة على الدرس غير متوفرة في تلك الأمم . أي ان الشرط الاول متوفر في البلدان الديكتاتورية دون الشرط الثاني ، بينما الشرط الثاني متوفر في كثير من البلدان الأسيوية دون الشرط الأول ، لذلك ففقدان أحد الشرطين يمنع وجود رأي عام اجتماعي » !

لكن هذا الاستشهاد غير صائب على ما أعتقد لأن من يمعن النظر في طبيعة نظم « الامم الديكتاتورية » وطبيعة النظم الموجودة في « كثير من الامم الأسيوية» يرى أن لا وجود مطلقاً لأحد هذين الشرطين ، لأن طبيعة النظم الديكتاتورية لا تسمح بتوفير وسائل التعليم والاستنارة ، لأنها قامت على محاربة العلم والعلماء . وأنشأت تدريساً من نوع جديد ، كتبشير بديانة جديدة ، لتوجيه الشعب ، نحو خدمة هذا النظام الديكتاتوري وتمجيد القائم على رأس هذا النظام ، أي ان هذا التدريس محضّر خصيصاً ، لقتل الرأي العام الاجتماعي ، وبهذا يفقد التدريس ، ميزته أو طبيعته ، كأحد شرطين لتكوين الرأي العام الاجتماعي .

أما كون كثير من الأمم الآسيوية تتوافر فيها وسائل ابداء الرأي ، فلا أظنه مطابقاً للواقع ، إذ تسيطر على أكثرية هذه الامم تقاليد قديمة متأخرة ، تقف حاجزاً في وجه الجيل الجديد ، الذي إذا ما ارتفع صوته مطالباً بهذا المشروع الاصلاحي أو غيره ، وقعت عليه النقمة العامة . فكثيرون الذين يذكرون حادثة خلع ملك الافغان عند ما أقدم على تشريع السفور ، ونذكر أيضاً ان بعض زعماء المملكة العربية السعودية عارض في مسألة ادخال « التلفون » الى البلاد ! ويبدو من هنا ان الشرط الثاني غير متوفر بكامله في « الكثير من الامم الآسيوية » .

* * *

نعود الى صلب الموضوع كيف يكوّن الرأي العام الاجتماعي في مصر ؟

إن تحديد شروط ايجاد هذا الرأي أو تكوينه بالقدرة على الدرس والقدرة على الافصاح نظرية صائبة تماماً . ولكن ينبغي علينا درس الطرق التي يجب أن نتبعها لنجعل هذين الشرطين في متناول يد التطبيق ، إذ لا يمكن أبداً أن ننسب وجود « الرأي العام الاجتماعي » إلى ظروف الزمان والمكان ، وإذا كان « الرأي العام الاجتماعي الحسن » في عام ١٩٤٤ ، غير الرأي العام الاجتماعي في عام ١٨٤٤ وغيره في عام ٢٠٤٤ ، فذلك بالنسبة الى أمة من الأمم ، وليس بالنسبة الى العالم ، فلو فرضنا أن النازية انتصرت في هذه الحرب ، لعاد الرأي العام الاجتماعي في العالم كله الى ما قبل ١٨٤٤ ولو بقي هذا النظام سائداً في المانيا فقط ، لبقي الرأي العام الاجتماعي الالماني وحده ، في طي الكفن !

ومثل آخر : ففي عام ١٨٤٤ كان الرأي الاجتماعي في فرنسا ، رأي نسبة كبيرة من مجموع الشعب الفرنسي ، وأظن انها أكبر من نسبة ١٠ — ١٥ في المئة من أصوات الشعب ، كما في مصر اليوم ، وذلك لأن نظام الحكم في فرنسا كان يومئذٍ ، وقد تشرَّب بتعاليم الثورة الفرنسية الكبرى ، أكثر شعبية وديمقراطية من نظام الحكم الموجود اليوم في مصر وفي غير مصر .

إذن فالمسألة ليست مسألة زمان أو مكان ، وانما هي قبل كل شيء متعلقة بطبيعة نظام الحكم بالنسبة لهذه الدولة أو تلك .

ويقول صاحب المقال أيضاً ، إن الرأي العام المصري يعبر عن أصوات ١٠ — ١٥ في المئة من مجموع الأمة ، فمعنى هذا انه يعبر عن آراء الطبقتين العاليتين في مصر طبقة كبار الملاك وطبقة الصناعة الكبرى ، والى جانبهما الطبقة المتوسطة ، المؤلفة من التجار الصغار

والمتوسطين، والملاك الصغار، وأصحاب المهن الحرة، والحرف الصغيرة المستقلة، والموظفين.

أما طبقة الفلاحين الكبرى، التي تؤلف أكثرية الشعب المصري الساحقة، ويليها طبقة العمال الناشئة ورأي هاتين الطبقتين مفقود تماماً، لجهلهما من جهة، ومن جهة ثانية لأن حرية ابداء الرأي، مقيدة بعض التقييد في مصر، وهذا مسؤول عنه أول شيء، الطبقات المستأثرة بالحكم فيها.

وهذا دليل جديد على أن وجود الرأي العام الاجتماعي أو عدم وجوده، يعود بطبيعة الأمر الى نظام الحكم، الذي قد يسمح وقد لا يسمح بايجاد الشرطين الأساسيين لتكوين الرأي العام الاجتماعي. ومع وجود هذه الأقلية التي تعبر عن الرأي العام الاجتماعي، أي الـ ١٠ و ١٥ في المئة فهي بدورها تنقسم قسمين كما يقول صاحب المقال، الذين يؤيدون ظهور المرأة على الشاطئ مع الرجال، والذين من جهة أخرى يحاربون هذه العادة.

ويعود هذا أولاً، إلى وجود الطبقتين الكبيرتين: طبقة الملاك «الاقطاعية» وطبقة الصناعيين «البورجوازية». فالطبقة البرجوازية، هي بالنسبة الى الطبقة الاقطاعية طبقة تقدمية، ولذا نرى خريجي الأزهر المتأثرين بتقاليد الطبقة الاقطاعية أعداء طبيعيين لكل نظرية تقدمية.

ولا يعني هذا أبداً أن تكوين الرأي العام معلق بانتصار الطبقة البرجوازية، لأنها بالنسبة للحركات التقدمية المعاصرة في العالم، باتت بدورها، طبقة تنزع إلى التأخير. ولذا فوجود الطبقات التقدمية على رأس الحكم يساعد أكثر على إيجاد الشرطين السالفين اللذين يسهلان وجود الرأي العام الاجتماعي. ومن هنا يظهر معنا، لماذا الغرب متقدم والشرق متأخر، لأن طبيعة نظم الحكم في الغرب، هي بالنسبة لنظم الحكم في الشرق، تقدمية. وما التأخر ناتج في الشرق إلاَّ لأن نظم الحكم فيه بأكثريتها، اقطاعية أو شبه اقطاعية.

***

نعود فنقول: على فرض أنه وجدت على رأس الحكم في مصر، طبقة تقدمية، وأصبح نظام الحكم في مصر ديمقراطيًّا شعبيًّا، فما هي المسائل التي يجب أن تنفذ، لنحصل على الشرطين الأساسيين، لايجاد الرأي العام؟

ان المسائل التي يجب أن تنفذ قبل غيرها هي:

١ — التحرر الوطني الكامل والسيادة الوطنية الكاملة « بتمصير » **كل الشركات** الاستعمارية الأجنبية .

٢ — تعميم المدارس المجانية الاجبارية الابتدائية

٣ — تأمين الحريات الديمقراطية العامة ، كالصحافة والنشر والكلام والاجتماع والأحزاب الخ .

٤ — محاربة البؤس ومكافحته بجميع الوسائل .

وإذا استطعنا تحقيق هذه المسائل ، أوجدنا أو كوّنا الرأي العام الاجتماعي ، الذي يساعدنا بدوره على تحقيق مسائل جديدة ومواد ديمقراطية جديدة مثل : نشر العدل في القضاء والادارة والمساواة بين جميع المصريين في الحقوق والقضاء والادارة ، ومحاربة المحسوبيات والرشوة ، وبالتالي إلى تحديد الثروات والأملاك الضخمة ، وحماية الصناعة المصرية الناشئة ، وتوزيع الأراضي على الفلاحين الذين لا يملكون شيئاً منها ، وحماية اليد العاملة بتوفير الغذاء والكساء والراحة والضمانات الاجتماعية المختلفة الخ . . .

هذا هو الحل الوحيد ، لنهضة الشعب المصري وتكوين الرأي العام الاجتماعي المصري ، ولا يمكن بعد تحقيق هذه المسائل أن نجد من يعارض مسألة استحمام المرأة وظهورها على الشاطئ ، ولا من يعارض في سفور المرأة وتعلمها .

أما مجرد تغيير كلمة شرق بغرب فلا أظن أنها كافية لتغيير مجرى الحياة العامة الحاضرة بمصر ، فبالأمس عمدت تركيا ، لا إلى تغيير كلمة شرق بغرب ، بل انقلبت رأساً على عقب من أمة شرقية إلى أمة غربية ، ولكنها مع الأسف لم تحقق تكوين الرأي العام الاجتماعي التركي ، لأن نظام الحكم في تركيا بعيد عن الديمقراطية الصحيحة ، ووجود حزب الشعب ، يمنع نشوء غيره من الأحزاب وتفكير تركيا في استعمار شعوب جديدة وضم ملحقات جديدة مثل لواء الأسكندرونة ، يمنعني من التفكير في تحسين حياة الشعب التركي ، وانماء الرأي العام التركي

ومهما كانت تقاليد الصعيد « والوجه البحري » متباينة ومتعاكسة ، فوجود نظام ديمقراطي صحيح يكفل للشعب المصري الحرية والهناءة والسعادة ، ويخلق تقاليدَ عصرية جديدة تدفع بأصحاب التقاليد القديمة الى الإنزواء .

كفر متى — لبنان — **محمد الديب**

الدعاية

أسباب نجاحها

عُدَّت الدعاية علماً . ولكن ليس علماً بالمعنى الدقيق للعلم ، أعني يمكن تطبيق قواعد ثابتة وقوانين راسخة على ما يعمل من دعايات يقوم بها الأفراد أو الجماعات ، لأن مجال الدعاية مترامي الأطراف متشعب الفروع وطرقها غامضة غير معبدة ومسالكها شائكة وعرة. فميدان الدعاية ومجال نشاطها يتصل بالعقول مؤثرة في الحوادث ، ومتأثرة بها . والعقول والحوادث عنصران يخضعان لعوامل متغيرة متقلبة ، أبعد ما تكون عن صفات الثبات والاستقرار . ثم ان الداعية يخدم مبادىء ثابتة يضعها نصب عينيه ، ولكنها في نفس الوقت مطاطة فضفاضة . ويتوقف مقدار نجاحها على مدى تمسكه بهذه المبادىء ، إزاء ما يلاقي من مشاكل أو ما يواجه من عقبات ، أو اهماله أمر هذه الأسس وتلك المبادىء .

وقد فطن القائمون بأمور الدعاية الى ميدانها الواسع الفسيح وعرفوا أن هنالك طريقة مباشرة آلية تعمل على سحق المعارضة جهراً وعلانية ، وأخرى غير مباشرة وهي وسيلة دقيقة حذرة عاقلة ، توحي بالآراء التي ترى بثها في قلوب الناس في كياسة ولباقة ، فلا يفطن الى ما يتسرَّب الى أذهانهم من آراء طريفة ومعتقدات جديدة . ويستقر في روعهم انهم قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من آراء وعقائد بمحض قوة ملاحظتهم ، ودقة استنتاجهم ، ولكل من هاتين الوسيلتين — المباشرة وغير المباشرة — قيمته وأثره في المحيط الذي خلقت له ، ولكن الداعية الذي يعتمد على الطريقة غير المباشرة ، أمامه مجال أوسع وأفسح لمدى نشاطه وهمته . والداعية لكي تكون له القدرة على املاء رأي من الآراء على جمهوره ، يجب أن يستند الى هيئة سياسية منظمة تشد من أزره وتكون له عوناً ، كما يجب أن تكون له شخصيته القوية البارزة في جماعته ، المسيطرة سيطرة مباشرة على اولئك الذين يود التأثير فيهم ، فاذا تشعبت الأغراض وتفرَّعت الأهداف حيث يجب أن تلتقي وتتصل بعضها ببعض ، فان الاغراء هو الوسيلة التي يجب اتباعها وهي وسيلة لها أهميتها وميزتها ، إذ هي كفيلة باكتساب أتباع أشد اقتناعاً وأقوى ثقة بما يؤمنون . والقول المأثور: الرجل الذي يقتنع قسراً وضد ارادته ، يبقى على رأيه القديم ، غالباً ما يتردد وقعه على أذني الداعية فيحيره في أمره ، بينما تجد أنه عند ما يلجأ الى الاغراء يثبت الغرور الكاذب والخيلاء الباطلة

في أذهان اولئك الذين اعتنقوا المذهب الجديد ، إذ انهم يؤمنون ايمانًا صادقًا انهم قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من آراء ومعتقدات عن طريق العقل ، أحراراً مستقلين ، لم ترغمهم قوة أو يخضعهم سلطان ، ولذا يكون من الصعب تحولهم ، إذ يجب عليهم في هذه الحال الاعتراف بما وقعوا فيه من أخطاء وبخاصة أن ليس هناك غيرهم يلقون عليه تبعة هذه الأخطاء ، ولذا فهم يميلون الى مقاومة كل حجج تتعارض وميولهم ، حتى ولو كانوا في دخيلتهم يصرحون بأنَّ لها قوتها ووجاهتها .

ولأجل أن يضفي الداعية صفة البساطة والسهولة على ما يدعو اليه من معقد الأمور ، وضعت سبعة أسس سميت أسرار نجاح الدعاية السبعة . والداعية الذي يطبقها في حملاته المستمرة يتيح لنفسه فرصاً طيبة للفوز ، ولكن هذا التحديد يؤكد لنا بأن الداعية كثيراً ما يكون تحت رحمة الحوادث . ولا أهمية لمهارة الداعية أو مثابرة أو حسن اعداد خطط الدعاية ، وانما النجاح موكول للظروف ، إذ أن الداعية معرَّض في كل وقت لخطر الهزائم المنكرة بسبب التغيرات الفجائية في مجرى الأمور والتي ليس له عليها من سلطان ، لأن العواطف وتذبذبها والأهواء وتأرجحها من أكثر المشاكل تحييراً للعقول إزاء القضايا العامة لأن الشرارة التي تبعث الحياة في حركة من الحركات تخبو لغير سبب ظاهر . والدافع اليها يضمحل دون مبرر ملحوظ . فان معبودات جيل من الأجيال تحت رحمة محطمي الأصنام في الجيل التالي ، فاذا ما أخذ الداعية التكوين النفسي لمجتمع من المجتمعات او جماعة من الجماعات على انه ثابت لا يتغير ، فقد ارتكب أفحش الأخطاء وأنكرها ، فيجب عليه أن يكون دائماً على حذر وأن يعد سياسته بحيث تتفق ونفسية الجماهير . والقواعد السبع الآتية لها أثرها الفعال وهي دستور الدعاية .

سر نسيان الجمهور

١ — التكرار هو السر الأول من أسرار نجاح الدعاية : ومن سرعة نسيان الجماهير ما نراه منها في حادث من الأحداث يلمع فجأة في وسط الظلمات وينفذ برَّاقاً الى السطور الأولى في الصحافة ، ثم سرعان ما يخبو ضوؤه وتتزاحم الحوادث الواحدة أثر الأخرى قبل أن يجد الجمهور فسحة من الوقت ليتعرَّف أهمية هذه أو خطورة تلك ، ولكن يطوي النسيان هذه وتلك معاً وفي سرعة فائقة . ففي قضية قتل ، مثلاً ، يتهم فيها عامل زراعي أمي مجهول مغمور ، تتداولها ألسنة آلاف مؤلفة بالذكر والترديد . ولكن سرعان ما ينسى هؤلاء كل ما يتعلق بالقتل والقاتل ، ولا يعودون يذكرون حتى اسمه في مدى شهور قصيرة . ثم لنذهب الى الطرف المقابل لذلك . سياسي يلقي خطاباً تتخاطفه أسلاك البرق في مختلف

مناحي العالم وتتداوله الأقلام والأفواه بالنقد والتعليق في الصحف ومن أعلى أعواد المنابر ، كما تشغل ذهن رجل الشارع فيناقشها مستحسناً أو مستهجناً لها ، ولـكن سرعان ما يسدل عليها وعلى ما أثارت من ضجة ستار النسيان ، فكم منا يذكرون ، اذا سئلوا ، تصريح سير صمويل هور المشهور الذي ألقاه في جمعية عصبة الأمم عام ١٩٣٥ عما بذلت بريطانيا من جهود ليكف موسوليني عن نشاطه في الحبشة ، بأن عرضت عليه عرضاً جديداً بشأن اعادة النظر في مشكلة المواد الخام .

وفي ضعف ذاكرة الجماهير والجماعات يقوم نجاح الدعاية وانتصارها المبين أو يكمن فيها فشلها الذريع . فذلك الضعف يساعد الداعيـة على أن يغير مسلكه دون أن تلتفت إليـه الأنظار ، وفي نفس الوقت تلقى على كاهله واجبات وتحتم عليه التزامات . فيجب أن يكرر ويعيد دون أن يمل . ويجب على الداعيـة أن يقف إزاء ما يقـع من الأحداث في كل يوم متحفزاً للعمل دائماً لا يفتر ولا يلين ، فاذا كان عمله مقصوراً على ان يبعث برسائله وتقريراته إلى رجال خاضعين للدولة ونظمها الاجتماعية والسياسية في كل ما يعملون ، كان عمل الداعية في هذه الحال سهلاً يسيراً بالقياس إلى غيره .

ولـكن إذا كان الداعية يعمل دون أن تظاهره قوة رسمية ، بل وربما كان يعمل معارضاً الهيئة الحاكمة أو محارباً النظام الاجتماعي القائم ، وجب عليه أن يكون ملماً بما تعقد من الأمور أو تشعب وتشابك منها ، بأن يعرض الموضوع الواحد في صور لا عدد لها ولا حصر مختلفة الأوضاع متعددة الألوان ، لأن التكرار يورث الملال والسأم إذا لم يصطبغ في كل مرة بصبغة الجدة ، ويقعـد الجمهور عن الاهتمام بما يدور حوله من مناقشات . ولـكن الداعية إذا ثابر واكتسب إلى جانبه أعضاء جدد يتجهون اتجاهه ويأخذون برأيه ويؤيدون دعوته ، فانه لا يلبث أن يظفر بتأييد بعض طبقات العامة ، وفي الوقت المناسب تصبح الدعوة التي ينشرها وآراؤه التي يبشر بها سدى العقول ولُحمتها .

التكرار ، التكرار ، التكرار . ليكن هو رائد الداعيـة فإن من المؤكد أن في كل مكان وزمان يوجد فريق من الناس يحاجون أو يناقشون ويتولون بالنقد أو التقريظ موضوع الدعاية أيًّا كان هو ، لأن العدو اللدود لأمر من الأمور هو إهماله ونسيانه أو تناسيه ، والحملات العنيفة ، قطعاً ، أفضل له من تجاهله ، فمثلاً لما قذف المعتدون سير ساموبل موزلي بالأحجار في اجتماع عام ، قامت الصحف المعارضة تطالب بأن يترك وشأنه وحيداً أعزل دون حماية أو رعاية . ولـكن سرعان ما أدركت الصحف جميعاً إنها كانت حمقاء وبسبب حماقتها قفزت الأخبار الفاشية إلى الصفحات الأماميـة والسطور الاولى في الصحف وإن كان زعيم الحركة الفاشية وهو سير صمويل موزلي قد دفع ثمن هذه الدعاية غالياً . ولـكن مما لا شك فيه إن الحادث

كان دعاية ناجحة غاية النجاح .

يمثل هـذا الحادث عنصراً أساسيًّا في الدعاية الصحافية التي قوامها التكرار . وجرت العادة أن تكون كل جرعة من الدعاية لها قيمتها الاخبارية ، لأن قيمة الأخبار في الصحافة الحديثة لهـا قدرها وخطرها والحكم عليها قاس لا يرحم . وليست المعضلة في ملء أعمدة الصحيفة ولكن أن تضغط أخبار أربع وعشرين ساعة في حيز ضيق أمر يدعو الى الشفقة بالقـائمين بشئون الصحـافة . وهناك نوع من الاعلانات الاخبارية المقنعة ويطلق عليها بالانجليزية Puffs (وهي اعلانات لهيئات تجارية أو سياسية توضع في صيغة أخبار دون أن يلحظ القارىء انها مقصودة لمجرد الاعلان) ، وقد أصبح الاعتراف بها حقيقة واقعة لا يمكن انكارها ، كما لا يمكن تفاديها بحال، رغم ما تلقى من معارضة شديدة حدت بالمشرفين على الصحافة الى ضغطها واختصارها الى الحد الأدنى . والداعية الذي يعتمد على أوساط الحلول في عمله، لا يلبث أن يجد نفسه بلا عمل فيجب عليه أن يصل بدعايته الى الذروة دائماً، والاَّ أعطى خصومه الفرصة أن يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى محاربته .

الرئيس ومصارع الثيران

٢ — اللون هو الأساس الثاني من أسس الدعاية السليمة : لا يعبأ الفرد العادي بالمعنويات ولكنه يهتم كثيراً بالشخصيات والحقائق . وقد أدرك الداعية الحديث هذه الحقيقة ، فهو لا يحاول فرض حججه فرضاً على العامة ولكنه يسعى بنشر تقريراته التي يذيعها الى كسب العطف على قضيته أو ليثير السخط على خصومه ، وغالباً ما يكون لمثل هذه الدعاية أثرها الفعال . ويجيء هذا الأثر عن طريق الحوادث يجمعها وتكون في مجموعها شاذة خارقة للعادة تترك أثراً عميقاً في النفس وان كان خادعاً ، لأن من عادة رجل الشارع أن يناقش الأشياء الخاصة وينتهي بها الى مبادىء عامة .

ولا يسع الداعية أن يلتفت كثيراً الى هذا المبدأ عندما يكون هدفه التأثير في الجماهير . فبينما نرى القارىء يولي مسرعاً عن الدعاية الصينية القائمة على معاهدة الدول التسع ، نراه يقبل في حماس وشغف على قصة شارلي سنج الذي هاجر مفلساً معدماً الى الولايات المتحدة والذي غدى بناته الثلاث فيما بعد قابضات على السلطة في حكومة الصين ومجالسها ومدام شيانج كاي شك إحداهنَّ ، ويلعبنَ دوراً خطيراً في تاريخ الصين الحديثة .

والمتكلمون من الطراز الأول وخطباء الطليعة يدركون ويعترفون بصحة هذا المبدأ . فلا بد وان يتأكدوا من أن كل فرد من جمهور المستمعين يتتبع بشغف ما يناقشه الخطيب أو المتكلم ، لأنه ليس من الصواب أن نرغم الأقلية على تتبع ما نقول اذا كان فيما ندلي به

من آراء ما يخص الأغلبية الباقية من المستمعين ، والأجدى لنا أن نخاطر بالادلاء بأحاديث عن شئون ملموسة بادية للعيان الى الأقلية النابهة من أن نسحر الأكثرية بما نقول .

ومما يقوي هذا القول حقيقة أن من السهل على غالبية الناس أن تتبع بحثاً مطبوعاً سهل التناول مدعماً بالأدلة والبراهين ، من أن يستمعوا الى هـذا البحث نفسه من فم خطيب على منبره ، فان الجهد الذي يبذله المستمعون لحصر انتباههم في أثناء الخطابة، أعظم منه في حال القراءة الهادئة الصامتة .

وفطن الهر هتلر الى هذه الحقيقة واستوعبها فصار هذا المبدأ أحد القواعد الأساسية التي يسترشد بهـا ، واذا ما قارن نفسه بلويد جورج وبثمان هولوج (١) فهو يعزو عظمة السياسي الانجليزي المنقطعة النظير الى البساطة التي يتمتع بها والتي لها السحر المبين في آذان السامعين ، فالسهولة التي تصبغ خطبـه ، واليسر الذي يتجلى في تعبيراته ، والصور الواضحة الهينة التناول التي يوردها في أحاديثه دليل قاطع على قدرة رجل ويلز (٢) السياسية الفائقة .

ولا يقتصر هذا على الدعاية الكلامية بل يشمل الدعاية الصحفية أيضاً، فواجب الكاتب أن يكتب في حدود الكلمات المألوفة لدى القراء ، ويجب عليه أن يستغل ميولهم ويفيد من جهلهم ، ولـكي يوضح « ويل ايرون » هـذه النقطة يروي القصـة التالية عن الحرب الاسبانية ، فان الصحافة الاقليمية في هذا البلد كان من السهل على الداعية شراؤها بالمال تنفقه لتعيش وتبقى . نشرت هذه الصحف قصة ما عدمت الصحف الكبرى أن نشرت القصة ذاتها ، وهي تصف ان إحدى كريمات الرئيس ولسن أحبت في أثناء زيارة لها في « بيرجوس » مصارع ثيران ، ثم ما لبثت أن تزوجت منه ، وأثمر هـذا الزواج طفلاً ذكراً . ولكن الرئيس صليب القلب متحجره ، فأرغم ابنته على العودة الى أرض الوطن وهجر زوجها والتخلي عن وليـدها ولم يمض وقت طويل حتى لقي البطل حتفه في حلقة السباق وأسلمت الأقدار الطفل الى جديه المعدمين اللذين كتبا للرئيس ولسن يستجديانه بعض المال لتربية حفيده ولـكن ضاعت جهودهما سدى ولم يظفرا منه بطائل رغم الالحاف في السؤال .

فالداعية الألماني الذي نسج خياله هذه القصة كان يعرف أن الرئيس ولسن هو الشخص الامريكي الوحيد الذي يسمع عنه الفلاحون الاسبان . وان للاسبان غراماً بالأطفال لا يفوقه غرام، وان بطل كل اسباني واسبانية هو مصارع الثيران . وسخف هذه القصة في نظر النابهين يعادله ويقابله تقدير لعبقرية مخترعها حيث تمكن أن يخلق جواً يبدو فيه صادقاً صدقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

---

(١) كبير وزراء المانيا في الحرب السابقة

(٢) لويد جورج كبير وزراء انجلترا في الحرب الاولى

وقصص التعذيب والارهاب تزدهر أيما ازدهار في جو الحروب الخانق المسمم. فإنه من الضروري جمع وتركيز الكراهية القومية على العدو وعرف الدعاة أن خير الطرق لتنفيذ ذلك هو أن نعطي العواطف حركات مسرحية ونصبغها بألوانها ونضيئها بأنوارها، ويكون ذلك بالتركيز على شخصيات البارزين فإن شطحات الخيال وسبحاته في ابتكار قصص التعذيب أو تحويرها أو مسخها حتى تلائم الهدف الذي يُرمى إليه، قد وصلت آماداً بعيدة وبلغت آفاقاً نائية في الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) بصورة تدعو إلى الدهشة والاعجاب . وقد انغمس كل من الجانبين المتحاربين في إبراز صور التعذيب وألوانها . ولكن كان لدعايات الحلفاء نصيب أوسع وأكبر من الذّيوع والانتشار من دعايات الأعداء لسيطرة الحلفاء على طرق المواصلات وتحكمهم فيها ، فقد كانوا سادة الموقف والقابضين على ناصية الأمر .

وقد أفاد الحلفاء ، ولا مراء ، مما ارتكب الألمان من أخطاء فاحشة فإن « كابتن فريت » عند ما حاول أسر غواصة المانية بسفينة تجارية غير مسلحة ثم أخفق، أعلن الألمان أن حقه كأسير حرب قد سقط ، وأعدموه رمياً بالرصاص . وقد هزَّ إعدام هذا البحار الجريء ، العالم أجمع وألحق بالقضية الألمانية خسارة لا تقدَّر . فقد استغل الداعية هذا الحادث ، كما استغلَّ حادث الممرضة « إديث كافل » من قبل عند ما صور الحلفاء بطولتها في جلال وتعظيم جعل حياتها مشكاة تضيء ظلمات سني الحرب السود . فإن الهيئة التي أصدرت حكم الاعدام كانت من الغباء وقصر النظر لدرجة ظنت معها أن موت « إديث » لا يهم . فطالما أعدم كثير من النساء من كلا المعسكرين ، من قبل . ولأنها كانت تشترك فعلاً في مؤامرات سرية تدبر خلف الخطوط الألمانية ، فكشفت المحكمة باصدارها حكم الموت عن جهل مطبق بالطبيعة الانسانية والنفس البشرية .

وكان للحلفاء أيضاً ميزة كتَّابها البارعين والرسَّامين والعباقرة الذين كانت كتاباتهم ورسومهم مرَّة المذاق شديدة الوقع على الأعداء، فإنه من المستحيل أن تنظر إلى إحدى صور « زايميكي » الهولندي دون أن تؤمن بمدى المعونة الهائلة التي قدَّمها للحلفاء ، فقد صوَّر في إحدى روائعه اعتداء الألمان على السفن المحايدة وإغراقها في لوحة تمثل اجتماع شرذمة من جنود الألمان اجتمعت متهالكة على نفسها في برج الحراسة في غواصة حيث يراقبون اقتراب زورق وقف به السيد المسيح وكتب تحتها عبارة وجيزة ولكنها بارعة : « إنه يبدو محايداً ، فلنغرقه » . مثل هذه الصورة كان لها تأثير صدع أركان الدعاية الألمانية ، وقوَّض أسسها في نضالها الحلفاء حينذاك. (لها بقية)

سليم تاوضروس الأسيوطي

البزّ

The Barbus Esotinus

١ — ﴿ تمهيد ﴾ البز بكسر الباء الموحدة التحتية وشدّ الزاي ، سمك عظيم يكون في الرافدين (أي دجلة والفرات) ، وأغلب ما يكون في الزاب الصغير أحد روافد دجلة في الشمال ، لأنه يجد فيه نقراً وأحواضاً ومغايض ، فيسْرأ فيه ويفرخ ، لأن ماءه هادئ ومطمئن ، وينحدر كثيراً الى دجلة ، وأحياناً الى الفرات ، فيصاد عند انحداره الى الرافدين ، وكثيراً ما يكون ضخماً ، قد يزن من خمسين الى مائتي كيلو غراماً ، إذا بلغ أشده ، أو بلغ عمره ستة أعوام فأكثر .

٢ — ﴿ أصل البزّ البيس ﴾ البز ، اسم معروف من شمالي العراق الى جنوبيه ، ومن شرقيه الى غربيه ، وعند جميع الأقوام من عرب وكرد وفرس وأرميين ، ومسلمين ونصارى ويهود ، بلا أدنى خلاف أو أدنى تغيير ، لكننا لا نجد له أثراً في الأسفار القديمة . والمظنون أنه لم يكن هذا الاسم معروفاً في قديم الزمان ، والذي وجدناه (البيس) ، بكسر الباء الموحدة التحتية ، وَسكون الياء المثناة التحية ، وفي الآخر سين مهملة . هكذا ذكره دوزي المستشرق الهولندي في تأليفه الملحق بالمعاجم العربية في مادة (ب ي س) ، ولم يشر الى البز ، على ما ذكرناه هنا ويعرفه به العراقيون . فقد قال في المادة المذكورة ما هذا نقله الى لغتنا : « بيس ضرب من سمك النهر . جاء ذكره في مخطوط يرى في الاسكوريال ، رقمه ٨٨٨ العدد ٥ . والذي أفادني هذه الفائدة الأديب م . سيمونه ، ويظن انه من الاسبانية Pez بمعنى سمكة » اه .

ويصف دوزي هذا المخطوط في مقدمته بقوله : « اسمه كتاب منافع الحيوان لعليّ بن محمد أبي الفتح بن الدُريْهم الموصلي المتوفى في بغداد سنة ٧٦٣ للهجرة » = (١٣٦١ م) فلا جرم أن هذا العراقي كان يعرف معرفة صحيحة اسم هذا الحوت الذي هو أعظم حيتان البحرين .

٣ — ﴿ اسم البزّ القديم هو الزجْر ﴾ على ان البزّ أو البيس لا يعرفهما فصحاؤنا

الأقدمون في عصر العباسيين فى صدر الخلافة ، ولا ذكروها في تآليفهم ولا في معاجمهم . وكذلك لم يعرف هذين الاسمين الأرميون ، ولا الفرس ، ولا الترك ، ولا الكرد الذين كانوا مبثوثين في تلك الديار من قديم الزمن .

والذي كان معروفاً عند بني عدنان (الزَجْر) ، بزاي مفتوحة وجيم ساكنة وفي الآخر راء . ويقال فيه أيضاً (الزجر) ، بفتح الجيم . ويعرف عند الأرميين بلفظ (زجْرا) بزاي مفتوحة وجيم ساكنة يليها راء وألف . ولم يصفه لنا أحد من لغوييهم ، فذكره برعلي وبربهلول ومن أخذ عنهما بقولهم : « سمك عظيم في دجلة » ومن لغوييهم من لم ينوّه باسم دجلة ، بل قال : « سمك عظيم الجثة صغير الحرشف » — وهو لا يوافق إلا البزّ .

وأما لغويونا فقد قالوا : « الزجر ، بالفتح ، كما هو مقتضى سياقه (أي سياق كلام الفيروزابادي)، وضبط الصاغاني بالتحريك : سمك عظام، صغار الحرشف، ويحرّك . ج: زجور هكذا تتكلم به أهل العراق . قال ابن دريد : ولا أحسبه عربيًّا (صحيح الاصل) » اهـ.

٤ — ﴿ اسم البز عند الفرس والترك ﴾ توهم بعض اللغويين الذين يحسنون العربية والفارسية أن الزجر مشتق من مصدر زجر الكلبَ يزجره زجراً ، وزجر بهِ زجراً : نهنههُ وتوهموا أن السمك المعروف بالزجْر هو كلب البحر لهذا السبب . وقالوا : اسمُهُ بالفارسية « الشّيم والسّيم » بكسر الشين المعجمة أو السين المهملة على السواء . ولذا قال صاحب الجمهرة : الزجر ليس عربيًّا ، ونحن نقول أن اسمهُ بالأرمية والعربية من أصل أشوري ومعناهُ : العالي المرتفع الضخم الخلق وهي صفة هذا الحيوان المائي .

أما الترك فيسمونه كما سماهُ الفرس بلسانهم أي « كويك بالغى » الذي معناه سمك الكلب . والذين يعرفونهُ بهذا الاسم غير الترك الحاليين الذين يجاورون دجلة ، بل الترك أرباب الأدب والتصانيف . أما الترك الحاليون فيسمونهُ باسمه العربي (البزّ) وممن ذكرهُ باسم كويك بالغى صاحب الأوقيانوس عاصم جلبي ناقل القاموس .

على أن صاحب (برهان قاطع) قال : الزجر هو الشيم بالفارسية . قلنا : وهذا اسمهُ بالفرنسية Squale وهو غير البز عندنا . ومثل هذا القول قال صاحب مقدمة الأدب (الزمخشري) وهذا نصهُ : « زجر (بالفارسية) : ما هي شيم » . والزمخشري حجة ثقة في لغتنا ، كما أنهُ حجة ثبت في الفارسية . وعليه : لم يكن علاّمتنا يحسن علم الحيوان من ذوات الأربع والطير والحشرات والسمك ، وهو غير عجيب لأن الأقدمين كانوا يحسنون اللغة دون علم الحيوان ولا علم النبات ولا علم المعادن ، إذ كانوا يعرفون شيئاً ويجهلون أشياء .

زد على ذلك أن العلماء لا يتمكنون من الوقوف على جميع العلوم فهذا محال ، أو قد

يزل العالم كما قد يكبو الجواد وإن كان أصيلا ، وقد ينبو الحسام وإن كان جُـرازاً . وهناك أمر آخر هو أن الكلمة الواحدة قد تدل على حيوانين أو ثلاثة أو أكثر ، فان الغيلم يعني الضفدع والسلحفاة الذكر والعلَّوش كجلوز : الذئب ، وقيل : ابن آوى ، ودويبة وضرب من السباع . — والعلجوم : الضفدع الذكر ، والقراد ، والظبي الآدم ، والظليم ، والكبش والوعل والثور المسن ، والبطة الذكر ، وطائر أبيض هو البجع عند أهل العراق والشديدة من الابل ، وقيل خيارها . وعليه قد يكون الزجر من هذا القبيل .

٥ — ﴿ من أي لغة جاءتنا البز أو البيس ﴾ رابنا أن الأصل لكلمة الزجر هو الأشورية ، فمن أي لغة جاءتنا البز المنقولة عن البيس ؟

ذكرناً عن دوزي أن البيس في نظر سيمونة Simonet من الاسبانية Pez أي سمكة ونحن لا نوافقه عليه لأسباب منها :

إن البز أو البيس معروفة في العراق وغير معروفة في الأندلس ، والاسبانيون لم يتصلوا بأهل العراق حتى يأخذوا عنهم ألفاظاً ، إذ لم يأخذوا منهم كلمة واحدة .

الثاني : إن الكلمة الاسبانية تعني السمكة أية كانت غير خاصة بجنس أو نوع أو ضرب .

الثالث : ان الذي ذكر هذه الكلمة كاتب موصلي لم يعش في الأندلس ولم يكن في ديار الغرب حتى يستعير منهم حرفاً من حروفه ، فلم يبق لنا إلاّ القول بأن الكلمة منقولة عن لغة قوم كانوا في العراق غير الاسبانيين الذين لم يكونوا في ربوع الجزيرة أو ديار بين النهرين يوماً واحداً .

والذي نراه نحن أن البيس أو البز مأخوذة من اللاتينية (بربوس[1] أو بربيس Barbus وهو

---

[1] قلب الواو ياء أكثر من أن يحصى ، ان في الالفاظ الاعجمية وان في العربية الصميم (ولا تقل الصميمة كما يقول الغير فهو خطأ) . فقد قالوا في تقل الاعجمية صور وهي Tyr وقالوا اشورية في Assyria وسورية (لاسوريا) في Syria واكسوبافن في Oxybaphion وفورون او فرون في Pyrrhon وجاء في التاج نقلا عن لسان العرب في مادة (خ ي ص) : قال الاعشى يهجو علقمة بن علاقة :

لعمري لمن أمسى من القوم شاخصا لقد نال (خيصاً) من عفيرة خائصا

قال الاصمعي : سألت المفضل عن قول الاعشي هذا · ما معنى (خيصاً) ؟ — فقال : العرب تقول فلان يخوص العطية في بني فلان ، أي يقللها . فقلت : فكان ينبغي ان يقول : (خوصاً) . فقال : هي معاقبة يستعملها أهل الحجاز . يسمون الصواغ : الصياغ . ويقولون : الصيام للصوام . ومثله كثير » اهـ .

وعندنا من هذه الشواهد ما لا يحصى ، فنجتزىء بهذا البرض عن العد ، اراحة للقراء ، اذ كثرتها لا يغير شيئاً من حقيقتها .

اسم الجنس الذي ينتمي إليه هذا السمك واسمهُ كلبُ والعلمي Barbus esotinus فحذف صدر الكلمة وأخذ بعجزها . ومثل هذا الفعل معروف في لغتنا وكثير الوقوع فيها . فقد قالوا : أدرة والأصلى أدرة قيلة Hydrokélé ، وكما نقول اليوم كيلو وسينما والأصل كيلو غرام ، وسينماتغراف . وربما فعل سلفنا ما هو بعكس هذا الأمر أي يهملون العجز ويأخذون بالصدر كقولهم الهزار وإنما هو هزار دستان ، أوالقيلة والأصل أدرةقيلة إلى غير ما هناك من الشواهد

وكان الدكتور أمين المعلوف ، رحمهُ الله ، يذهب إلى أن البز مأخوذ من البسّ بمعنى الهر(٢) وكنا ذهبنا نحن إلى أنه من اليونانية Piscis لـكن اليوم نعدل عن هذه الفكرة إلى أنه من بربوس كما تقدم الـكلام آنفاً (راجع معجم الحيوان ص ٢٧) و (لغـة العرب ٨ : ٤٦٨) ففيهما ما يغني عن التكرار .

٦ — ﴿ اسمه عنـد الافرنج في الشرق ﴾ الافرنج الذين يترددون الى البلاد التي يرى فيها البز يسمونه Poisson de Tobie أي سمك طوبيا ، اشارة الى هذه الآية الواردة في السفر المنسوب اليـه : « وسافر طوبيا ، والـكلب يتبعه ، فبات أول منزلة بجانب نهر دجلة . وخرج يغسل رجليه ، فاذا بحوت عظيم قد خرج ليفترسه . فارتاع طوبيا ، وصرخ بصوت عظيم قائلا : « يا مولاي قد اقتحمني » (سفر طوبيا ٦ : ١ — ٣)

والذي في رواية النسخة السينائية ، وهي نسخة عتيقة يعرفهـا البصراء من الباحثين : « حاولت أن تلتقم رجله ، فارتاع طوبيا ، لـكنه أخرج السمكة من أذنيهـا ، على أمر الملاك الى الضفة » .

قال العلامة ڤيكورو Vigouroux ، صاحب معجم التوراة : « ان النص المقدس لا يذكر شيئاً بخصوص حقيقة هـذه السمكة والفراتان كثيرا السمك ، وأهالي شواطئهما يقتاتون به منذ زمن طويل فهم يأكلونه غضّـا ومملحاً ومدخناً . وييبّـسونه في الشمس ويسحقونه في هاون وينخلونه فيغدو كالطحين ، ويقرّصونه ، ويتخذون منه ما يشـبه الخبز . وقد ذكر هيرودوتس في كتابه ١ : ٢٠٠ ان البربيس ، (البزّ) ، والبني ، والجرّيت ، والمرينـة ، والسلور تنمو نموًّا بديعاً وتعظم في أجسامها في تلك المياه الهادئة ، ويرى ضرب غريب من الطريغلا يقيم في الماء على مألوف عادته ، لـكن الهواء الطلق لا يخيفه البتة ، فهو يقع على

---

(٢) معنى البس بفتح الباء الهر الاهلي والواحدة بهاء وذلك ان للبز ما يشبه الشاربين كالبس وهو البزون عند عامة أهل. ولا يخفى أن جميع الاسماك السلورية — والبز منها — يسميها الانكليز cat fisher أي السمك القط . هذا رأي الدكتور أمين المعلوف . راجع كتابه معجم الحيوان طبع المقتطف ص ٢٧.

الجروف ، ويتوقل الأشجار بلا صعوبة تذكر ، وينسى نفسه بطيبة خاطر ، منتبذاً الغرين الذي يغادره الجزر ، ويتمرّغ فيه متشمساً هناك ، اللهمَّ إلاَّ اذا أخذ طائر يدنو منه كثيراً فحينئذ يتوغل فيه بلمح البصر » (عن ماسبرو في كتابه التاريخ القديم ١ : ٥٥٦) . وقد ظنَّ بعضهم ان سمكة طوبيا كانت سلوراً ، فردَّ عليهم آخرون انه لا يحتمل انه يهجم على الانسان . (راجع تريسترام : كتاب التاريخ الطبيعي للتوراة ص ٢٩٣) والنسخة السينائية والولغاتة تتكلمان على سمكة كبيرة والنص اليوناني السكستيني يقول فقط : «سمكة هجمت وقد خرجت من النهر » .

ولا يبعد أن تكون هذه السمكة غير موصوفة وصفاً كافياً حتى قيل انها قفزت من النهر هي الطريغلا ، ولا جرم انها كانت على كل حال ضعيفة ضعفاً مذكوراً ، حتى تمكّن الصبيّ طوبيا من جرها اليه من خياشيمها ، وكانت في الوقت عينه كبيرة كبراً كافياً ، ليتخذ منها زاداً يكتفي به مسافران ذاهبان الى الريّ » اه .

٧ — ﴿ أقوال بعض العراقيين فيه ﴾ سألت صديقي الجليل العلامة صاحب المعالي الدكتور حنا بك خياط عنه ، فقال لي ما ملخصه :

أني جوّلت في العراق من شماليه الى جنوبيه ، ومن شرقيه الى غربيه ، فاتفق لي أني رأيت مراراً البز ، بل مراراً لا تحصى حينما كنت أذهب الى قضاء شؤوني في ارجاء الزابين ، ولاسيما في أنحاء الزاب الأصغر ، حيث يرى أكبر البزوز (جمع بز) ، فرأيته في الماء وفي خارج الماء ، ورأيت صغيره وكبيره ، ورأيته حيًا وميتاً . ولما يكون في بطن الماء ، كنت أراه يخرج منه ، ثم يلقي نفسه فيه ، كأنه يحاول أن يتنفس ، كما يفعل البال في البحر ، أو كأنه يحاول الهجوم على صغار السمك التي يراها تعوم على وجه الماء لأنه يلتهمها ويأكل أيضاً الحُيَيْوينات التي ترى في الماء ويبتلع الخضرة والعشب والطحلب وما إلى نظائرها التي يراها على الساحل ، وكذلك ما يرى ثمة من فضلات الطعام وما ينبذ في الماء من النفايات والأقذار العضوية .

وأكثر وجود البز الضخم في اغوار الزابين بالزاب : الزاب الأعلى والزاب الأسفل (ويقال لهما الزاب الأكبر والزاب الأصغر) وسبب ضخامته هناك كثرة الحُفَر المائية التي ترى هناك ويأنس إليها لابتعاده فيها عن مخاطر العركين (صيادي السمك) ، وتمتّعه بما يراه فيها من زاده . وثمَّ سبب آخر هو : إن ماء الزابين لا يجري بشدة وعُنْف ، إنما يجري بتؤدة وهوينى ، فلا يندفع هو فيه مكرهاً ، بل يخلد في مأمنه متلذذاً متنعماً معمّراً

ومما يأنس به من المواطن ، ماكان منها منبسطاً كالسواعد والنهيرات الضعيفة التي تفرغ مياهها في دجلة وتتوهيأ في الزابين ، حيث تكثر الخضرة والفضلات والسميكات .

انتهى هنا كلام الدكتور العلامة الموصلي ولادة ، والمقيم اليوم في بغداد .

ثم سألت موصليًّا آخر وهو ابني بالروح ، واسمه كوركيس عواد : أتعرف البز وهل رأيت واحداً كبيراً من هذا الجنس ، فقال :

« كنت في صيف سنة ١٩٣٥ عائداً من بغداد إلى مسقط رأسي الحدباء ، (أي الموصل) فوصلت إلى آلتون كُپْري ، فقعدت في قهوة فيها ، وآلتون كپري قرية بين بغداد والموصل وكان الوقت قبيل الظهر ، فاذا بسيارة من سيارات (فورد) الضخمة قدمت ووقفت أمام القهوة ، فنهض أكثر من فيها ليشاهد ماكانت تحمله ، فاذا سمكة ضخمة هي (بزّ) ، وقد أصطيدت بالزاب الأسفل ، وكان جسمها قد أحاط بالسيارة كلها حتى بلغ رأسها الآلة المحركة ، وذنبها جاورها منها ، بعد إن التفّ على السيارة التفافاً تامًّا . فعجب المشاهدون مما رأوا .

وكان طولها ثلاثة أمتار ، وزنتها نحواً من مائتي كيلوغرام ، وأكّد جميعهم إنهم لم يروا بزًّا هائل العظم مثل هذا الذي رأوه ، » اه

وكتبت رسالة إلى الصديق الحميم في الموصل ، الدكتور داود بك الچلبي وسألته عدة أسئلة عن البز ، واسمه في العلم أو في لغة أفرنجية ، فأجابني بهذه الكلمة التي أعيد نقلها للقراء ، للاستفادة منها وهذا نصها بتاريخ ٢٢ / ١١ / ١٩٤٤ :

« تأخرت قليلاً في الاجابة على كتابكم ، وسبب ذلك بحثي عن اسم البز في إحدى اللغات الأفرنجية ، أو بلسان العلم ، ولكن ياللأسف ، فقد خاب سعيي ، ولم أعثر على هذا الاسم في ما عندي من الكتب ، واستعنت ببعض أناس هنا لهم إطلاع على الانجليزية فلم يفيدوني شيئاً ، وأظن السبب هو عدم درس علماء الحيوان (١) لأسماك العراق حتى الآن . فأرجو المعذرة ، وأعدكم بأنني إذا عثرت يوماً ما على اسم هذا الحيوان ، أخبركم به »

أثناء بحثي عن البز ، تحققت أن المرحوم أمين باشا المعلوف كان واهماً حين سمى في معجمه (معجم الحيوان) البز باسم cat-fish ، فان هذه السمكة ليس فيها من أوصاف البز شيء ، وأظن أن وهم

---

(١) الذي أعلمه أنا ، إن عالماً روسياً درس درساً حسناً أسماك الفراتين منذ نحو سبعة أعوام ولايزال يدرسها وهو يكتب أساميها بالعربية واللاتينية ، لكنه لم ينشر منها شيئاً بالطبع . وقد بحثت عن محل سكناه فلم أهتد اليه يومئذ ، ثم واصلت البحث عنه ، فاتصلت بمعرفة مسكنه فأفادني عن اسم البز في نحو أواسط كانون الاول ديسمبر سنة ١٩٤٤ .

أمين باشا هو الذي جعل عبد العزيز مهدي وبشير الوس يغلطان الغلط عينه ، فان لهذين الشابين كتاباً في علم الحيوان يدرّس في المدارس الاعدادية (في العراق) وقد وضعوا صورة سمكة لها زوائد عند فمها طويلة كالسبال ، وكتبا تحتها انها البز ، وان اسمها الانكليزي (١) « cat-fish » اهـ

ثم كتبت اليه ثانية لأقول له ان البز مقطوع من اللاتينية القديمة Barbus ، وذلك لأن الرومان ملكوا ديار العراق ، وتركوا فيها من لغتهم ألفاظاً كثيرة لا تنكر .

فكتب اليَّ رداً بتاريخ ٨ / ١٢ / ١٩٤٤ ، ما هذا نصاب عبارته : «لا نستطيع أن نقول ان البز والسمك المعروف بالباربو Barbeau هما واحد . ولو صرفنا النظر عن الفرق العظيم بين جسامتهما ، لم يسم البربو بهذا الاسم الا لأن له عثنونين في كل جانب من خطمه يشبهان اللحية ، وليس للبز عثانين ، انما له عند صامغيه نتوء كالثؤلول (٢) كما في السمكة المسماة بالفرنسية (٣) Tanche ولا أدعي ان البز هو نوع كبير من التنش ، ولكني أقول انه قريب منه جداً . وكلاهما من الصنف المعروف عند علماء الحيوان بالسبرينيدة Cyprinidés » هذا ما لا شك فيه » اهـ كلامه .

وفي رسالتي المذكورة ، ذكرت له ان السمكة التي تعرضت لطوبيا ربما كانت كوسجاً . وهذه السمكة معروفة اسماً وجسماً في نهر بغداد (أي دجلة) والكوسج هو القرش عند غير العراقيين ، وهو كثيراً ما يتعرَّض لمن يسبح فيه في فصل الصيف ، فأجابني بما يأتي :

لم يذكر أحد قطعاً ان الكوسج قد يصل الى نواحي الموصل (٤) . أما حكاية طوبيا والحوت ، فانظر اليها نظر خرافة لا غير (٥) . قيل في هذه الحكاية : إن طوبيا الصغير ،

---

(١) الذي نعلمه نحن ان امين باشا المعلوف لم يخطأ بذكر الاسم العام الانكليزي (كات فش) الذي معناه السمك السنور ، وهو اسم عام يشمل سمكاً عديداً يمتاز بما يشبه شوارب القط عند صانعيه وللبز شيء يشبه ذلك فيصدق عليه هذا الاسم العام لكن الخاص غير ذلك .

(٢) اني لم أقل ان البز مقطوع من باربو الفرنسية ، انما هو مقطوع من (بربوس) اللاتينية . وبربوس اسم عام يشمل سمكاً عديداً تختلف أسماؤه في جميع اللغات باختلاف النوع ويزاد على اسم جنسه العلمي ما يميز بعضه عن بعض .

(٣) اسم هذا السمك الفرنسي يقابله بالعربية الطنز بطاء مفتوحة ونون ساكنة وزاي في الآخر .

(٤) ذكر لي أحد الثقات ، وهو ابني الثاني بالروح ، ميخائيل عواد أن كان له أخ نجار وكان يقضي بعض أوقاته في صيد السمك ، في دجلة الموصل ، واتفق له ان صاد مراراً كوسجاً . فهذا كلام لا يتفق وكلام الدكتور الجلبي ، حرسه الله .

(٥) لكن العلماء الاثبات ينظرون اليها نظرهم الى حقائق لا ريب فيها .

أو طوبيث ، بعد أن سار يوماً كاملاً مع دليله الذي هو في الحقيقة روفائيل الملك وصل شاطىء دجلة ، والحال ان الذي يقصد بلاد ماري من نينوى ، يتجه شرقاً فيبتعد عن دجلة ، واذا فرضنا انهم قصدوا بدجلة أحد روافده ، أي الزاب ، فلم يذكر أحد أن فيه الكوسج ، واذا فرضنا من غير دليل ان الكوسج كان يعيش في دجلة أو في الزاب قبل ثلاثة آلاف سنة كيف استطاع طوبيث ان يمسك هذا الحوت الضاري الفتاك ويسحبه ويخرجه الى الساحل دون أن يؤذيه . وهل يصدق أن مرارة الكوسج أو البز تشفي البياض في العين وتقلعه (١) ومتى كانت الملائكة أدلة للبشر ؟(٢) هذا كله يؤدي بنا حتماً أن لا نعتمد على خرافة طوبيا ونحاول أن نستخرج منها حقائق .

وأما البز ، فلا يهاجم البشر ، وغاية ما يمكنني أن أقوله : إن البز من الأسماك الكاملة العظام Téles toéens من صنف السبرنيدة Cyprinidés وان أسماك العراق لم تدرس الى

---

(١) يقال طوبيا الصغير فهو بالنسبة الى والده الذي يسمى طوبيا الكبير أو طوبيا الاب والوالد ، وكان صبياً نشيطاً وقوياً والدليل انه مشى أربعاً وعشرين ساعة على قدميه ولم يشك من التعب

وأما ان الملائكة ظهرت للبشر وساعدتهم في حاجاتهم فهذا معتقد اليهود والنصارى والمسلمين كما يرى ذلك مدوناً في كتب معتقدهم .

وأما الاتجاه الى بلد من أي بلدان كانت فقد يكون بطرق شتى وعلى ذلك مثل الفرنسيين ما معناه كل الطرق تؤدي الى رومة وهو قولهم Tous les chemins mènent à Rome ومنهم من يقول : كل طريق يؤدي الى رومة Tout chemin mène à Rome

المراد بدجلة في سفر طوبيا نهر السلام . النهر الكبير وقد رأينا في كل سنة رجالا وحيوانات ضخمة يتعرض لها الكوسج وقد رأى كاتب هذه السطور كواسج في أعوام مختلفة بحيث لا يحتمل الامر أدنى ريب. وأما انه وجد أو يوجد في أنحاء الموصل ، فهذا ما أكده أحد الثقات تأكيداً لا خلاف فيه . واذا كان لم يذكر أحد من الكتبة هذه الحقيقة الصادقة فليس في هذا ما ينفي الواقع ولا صدق الرواية ، فأرباب اليراع لا يذكرون كل ما يقع من الحوادث والانباء . فالكوسج عاش ويعيش وسوف يعيش في دجلة ما شاء الله ربك الخالق .

وأما ان الشاب طوبيا أخرجه من النهر فغير بعيد فلقد كان قوياً استطاع أن يسير يوماً كاملا بدون لغب. فهذا يدل على أسر أعضائه وشدة قوته . ولقد كان الشاب افرام عواد اجتذب مراراً الى ساحل النهر الكواسج التي كان يصطادها في دجلة الموصل

أما مداواة العين بالمرارة فالواقع أثبت الحادث فلا جدل ولا مماحكة بعد الواقع

(٢) درست درساً علمياً لكننا لم نظفر بما قاله العلماء إلا حديثاً

الآن درساً علمياً ، فلم يعط له اسم علمي[1] واذا كان قد أعطي له هكذا اسم ، فلم اطلع عليه ، ولم أجد في الكتب التي لديّ ذكراً له . وراجعت عند أحد أصدقائي المعلمة البريطانية ، فلم نجد للبز ذكراً . أما البربو Barbeau فهو السمك المعروف في مصر باسم بربون ، وكذلك يسمى في استنبول ... » اه .

٨ — ﴿ صيده ﴾ ذكر لي صاحب المعالي الدكتور حنا بك خياط ان الذين يصطادون هذا الحيوان يفعلون كما يأتي : يمد قلس (حبل ضخم) من شط الى شط ، ويربط ربطاً محكماً بأن يثبت كل من طرفيه إثباتاً نعماً في الأرض ، ويعلق بذيالك القلس المعترض جُمّال آخر تعلق عليه كلاليب كبار عديدة حتى اذا مرَّ بأحدها ، علق به لا محالة . وفي الوقت نفسه يلقى في مجرى النهر قطع من القثاء الغليظ ويسمى (شِلِيق) أو (شِلِنك) في تلك الأرجاء . ولما كان البز حريصاً كل الحرص على أكل هذا الضرب من القَثاء ، يأخذ بالسعي وراءَهُ سعياً حثيثاً لاصطياده ، حتى يصل الى الحبل المعترض للنهر حيث الكلاليب ، فينشب بأحدها ، فيعلق به ولا يتمكن من التملص منهُ ، فيؤخذ ويخرج من الماء ، ويتمالأ على جرهِ منه ، اثنان أو أكثر ، ويحرص كل من الآخذ من يجرّه إن لا يصدمهُ البز بمقتل منهُ لئلاَّ يصرعهُ صرعاً مميتاً . وإذا أخرج من الماء ، ينقل الى بغداد لبيعه ، لأن اليهود مولعون بأكله بنوع خاص أكثر من لحوم سائر السمك ، فيفلح ببيعه صيادوهُ .

٨ — ﴿ اسمه العلمي ﴾ ذكرنا اسمه العلمي في الدَّبْرَة الخامسة من مقالنا هذا اي Barbus esotinus على ما قاله لنا العلامة الروسي[2] الاختصاصي ، وهو حجة عظيمة في هذا الموضوع . وأما ذكر فصيلته وما يقال فيها فان الدكتور داود بك الجلبي أفاض فيها فلا يعدل عن وصفه لها فيجب ان يتمسك به . فنشكر كل من ساعد على تحقيق هذا المقال من وطنيين وأجانب . ومن أراد أن يتوسع في البحث أكثر من هذا ، فليفعل ، وله المثوبة .

الاب انستاس مارى الكرملي

---

[1] الكلمة اللاتينية تقابل عدة أسماء بالانكليزية والفرنسية والعربية لانها اسم جنس لا اسم خاص فتخصص بزيادة صفات عليها .

[2] هو الخبير البصير Démétri Balayen

غرام بين أديبين

الفريد ديموسيه وجورج صاند

« أهدي هذا البحث المتواضع الى مترجم شعر « ديموسيه »
الى لغة الضاد الشاعر الكبير الاستاذ خليل مطران »
حليم متري

ولد الفريد ديموسيه عام ١٨١٠ في باريس ومات بها عام ١٨٥٧ وهو يقف في الجيل الثاني للرومانسيين . والحركة الرومانسية بدأت حوالي عام ١٧٦٠ وانتهت عام ١٨٦٠ . وهذه الحركة قامت على أثر الدراسات العقلية العميقة أو الشاقة التي عقبت النهضة الأوربية . فعقب النهضة الأوربية ساد العقل وبدأ الذهن الانساني ينفض عنه آثار التقاليد والمعتقدات ، وينقد آثار الاجتماع ويناقش أصول الدين . واذا كان من المسلم به أن عماد الأدب العاطفة والخيال ، فقد يكون من الجائز ألاَّ ينهض الأدب نهضة ممتازة في عصر العقل والمنطق . ولعلَّ هذا هو السبب في فقر الآداب الفرنسية على وجهٍ خاص في أزهى عصور الفلسفة ، وفي أحفل عصور الفكر والتفكير . كان الأدب هزيلاً ضئيلاً في القرن الثامن عشر ، لأنه كان يعتمد على العقل المجرد ، وكان راكداً جامداً لأنه أحيط بقواعد آلية ، وقيد بقيود وراثية . فقد آل الشعر مثلاً الى مباحث نظرية وموضوعات فلسفية مجردة ، ليس وراءها الاَّ التفخيم والتكلف . فان نظموا في الغزل ، فبذلك الأسلوب الفاتر الخالي من الشعور ، وان وصفوا الطبيعة فلكي يذكروا بعض أنواع الشجر أو أصناف الورود والأزهار . أما خلق وتكوين الصور الشعرية واستيحاء الطبيعة أو المرأة والتعبير عن الأحاسيس والانفعالات النفسية ، وما يولد من العواطف في النفس ، فذلك ما لا تجد له أثراً في أدب ذلك العهد . ولعلَّ « الصالونات » الأدبية التي شاعت في هذا العصر كانت من بعض الأسباب التي عاقت الأدب عن التطور . والتي دعت الى حصر الأدب في دائرة محدودة لا يتعداها . « الصالونات » لا تقوم الاَّ على التقاليد ولا تحيا الا بالأوضاع . وقد حرمت هاته التقاليد على روّاد الصالونات كل حرية فردية ، وأهملت كل محاولة يقوم بها شاعر أو كاتب يتحدث عن ذاته ويصف انفعالاته وتأثراته . وهنا تخبو العبقريات

الناشئة ، والقرائح الحية الوثابة . وسبب آخر كان من بين هذه العوائق التي حدَّت من نهوض الأدب ورقيه . هذا السبب هو الذوق الخاص . فهنالك قوالب خاصة للتعبير تصب فيها المعاني بأساليب قياسية وطرق مرسومة، وهي تنكر الحساسية وتخرجها من حساب الادب، ولا تتناول العاطفة أو الميول النفسية الاَّ لموضوعات علمية مجردة للدرس أو للتحليل . وكانت اللغة من ناحية أخرى تعبر تعبيراً صادقاً عن الاريستوقراطية الشائعة أو هي كانت صورة واضحة للملوكية. فمن الالفاظ الشريف والنبيل والعظيم والعامي والامي والحقير. ومن الكلمات ما كان يقصر استعماله على الاغراض الخاصة بالطبقة المحافظة الاريستوقراطية . ومثل هذه اللغة بطبيعة الحال جافة عاجزة عن أداء الانفعالات النفسية خالية من الصور الشعرية العاطفية . ولسنا ننسى انها بجانب ذلك كانت لغة العقل المجرد والفلسفة التجريدية بوجهٍ عام . وان كانت قد عجزت عن أن تكون لغة الخيال الجامح والاحساس المرهف والعاطفة المشبوبة .

في نهاية القرن الثامن عشر برزت في الأدب، وشاعت في الحياة الأدبية، ظاهرة قوية تعد الى حدّ ما نقطة تحوّل في تيار التفكير الأدبي . تلك الظاهرة هي تغليب الشعور والعاطفة على الطابع الأدبي وإشاعة « الحساسية » في الأسلوب . ولقد تقدم ذلك الأسلوب تقدماً محسوساً بجانب تلك الآراء التي كانت تصدر عن العقل المجرد . ومن روّاد هذه الحركة الجديدة في التفكير الأدبي جان جاك روسو، وشاتو بريان . فقصة «هلويز الجديدة» مثلاً لروسو، هي قصة ذلك الحب الذي نشأ ونما بين العواطف الجامحة، والاندفاعات القلبية . ولقد سادت تلك الظاهرة الجو الأدبي كرد فعل . لأن الاندفاع في تيار الحركة العقلية كان قد جدد مذاهب التفكير في دائرة المناقشات والمحاورات الفلسفية والمنطقية ، التي كانت الى حدّ ما تخدع بظاهرها البرّاق ولكنها لم تكن تترك في كل نفس غاية خاصة ترمي اليها أو غرض تقف عنده . وطبيعة تلك المناقشات والمحاورات الفلسفية أو المنطقية أنها مجال للتطور، بل أن الجدل فيها خاضع لمدى تقدم العقل ورقيه . فكلما زادت المعارف العلمية واتسعت رقعتها ، اتجهت الفلسفة وجهات تقتضيها طبيعة التقدم العلمي والرقي العقلي . ولقد أدّت المسائل الفلسفية إذ ذاك الى قلق فكري، وغدا المثقفون والمشتغلون بالأدب يتساءلون أين المستقر ؟ قال المثقفون والمشتغلون بالحياة العقلية وبالأدب على وجهٍ خاص إن التفكير في المسائل العلمية أو الفلسفية المجردة ، لا يمثل الحياة الفكرية بأوسع معانيها وعمدوا بعد هذا الى خلق ألوان جديدة في الأدب تمثل ميول العصر وأخلاقه ونزعاته وعرف عندئذ الادب الوجداني ، وهو الادب الذي شاع كثيراً في القصص . فأدب القرن الثامن عشر كان يتجه اتجاهاً وجدانياً عاطفياً غرامياً إذا صحّ هذا التعبير، بينما اتجه أدب القرن التاسع عشر مثلاً اتجاهاً

آخر، فقد تأثر بالمبادىء العلميـة التي ظهرت في ذلك العصر، وتجد انه تخطى الوجدانيات الى الواقع — فالرومانتزم في جملته وتفصيله هو الادب الغنائي والادب الغنائي يعتمد على النفس وما يعرض لها من العواطف والميول والخواطر ، وقيمة هذا الادب في تغليب « الذاتية » ورجوع كل المطالب الى « ذات » الانسان . وروسو هو الرائد الاول لهذا الادب فهو من غير شك مصدر تلك الحساسية التي شملت فترة من الزمن بلغت فيـه العاطفة مبلغاً له تأثيره وقيمته، بل لقد كانت « الرومانسية » ثورة العاطفة على العقل كما كانت الى حدٍّ ما ثورة الشخصية على القواعد والتقاليد .

الفريد ديموسيه إذن كان كما قلت يقف في الجيل الثاني للحركة الرومانسية ، فقد كان يقل أهمية عن لامرتين والفريد دي ڤين وهوجو. كان يقل عنهم شأناً في سعة الخيال وقوة التفكير، ولكنه كان يفوقهم حساسية وشعوراً وذكاءً ، بل كان يفوقهم اخلاصاً وسماحة "Spontaniety"

واذا كان البحث يتعلق بحاسته فهو جديرٌ بادماجه في كتّـاب وشعراء القرن التاسع عشر. فقد كان حاد المزاج حزيناً ، شهوانيّـا ، يتأثر تأثراً عميقاً ، كما كان في ساعات هدوئه ، نابهاً لبقاً منتشياً ، وبخاصة إذا بدأ يروي القصص . وكان من أكبر قصّـاص القرن الثامن عشر من حيث قوة البداهة والفـكاهة . كان الفريد ديموسيه عارفاً المعرفة كلهـا بأدب شاكسبير وبايرون كما كان عارفاً أيضاً بالأدب الايطالي. وكان يكثر من تقليد الايطاليين ، كما كان يحتال على تقليد شاكسبير وبايرون . ولـكنه تقليد مشبع بشيء من التصرف والاصالة . والقصائد التي انبعثت منه عن حبٍّ عنيف هي مثل بديع للألم العميق . وتلك عبقرية لا تستطيع بلوغ قمة الفنّ ، أو النهوض بخصائصها إلى مثالها الأدبي الأعلى إلاّ إذا رضخت لشبه صراع ادبي . هي يعز عليها السكون أو التفـكير الهادىء فترتجف احساساً — والفن ارتجاف — فهي إذن تتطلب الاحساس صارخة وتستعيد نوبات شقائها ، شاعرة بلذة غريبة في تعذيب نفسها مختارة .. ؟ ! وهكذا كان ديموسيه يستهبط وحي شعره من ألم قلبه، وينشد روائع شعره في نفس الليلة التي قد يجري فيها ، أو قد يتحقق فيها أن عشيقته قد خدعته مع أحب صديق إليه. كان يحب الـكاتبة الأديبة « جورج صاند » وكانت تخونه فلم يكن له ملجأ يلجأ إليه سوى قلمه يأتي به مدوّناً على القرطاس فاجعة حياته وجنة هواه .

عرف الفريد ديموسيه جورج صاند في ربيع عام ١٨٣٣ ولقد كان التعارف بينهما قد تمَّ في مأدبة أقامها صاحب مجلة العالمين Pevue des Deux Monds . جلس إليها ليتحدث دأب كل شاب مع شابة في مثل هذه المآدب . وكان الناقد الـكبير سانت بيف صديقاً للطرفين مطلعاً على أسرارها . وكان « سانت بيف » قد رغب الى صاند أن يعرّفها بالفريد ديموسيه

فأبت لما اشتهر به من اسراف في اللهو والمجون . أما بعد المأدبة فقد عرف كل صاحبه ورأى كل في الآخر الجمال الذي حلم به ، رأى موسيه في صديقته الجمال الذي تمثله وتغنى به في شعره ، رأى عينين سوداوين ، وبشرة سمراء ، وجسماً قصيراً خصباً . ورأت جورج صاند فيه شاباً وسيماً ، لبقاً محدثاً ، فكهاً ، كان ديموسيه إذ ذاك في الثالثة والعشرين وكانت هي تكبره بسبع سنوات . كتب موسيه اليها مرة يقول « ان الأجيال القادمة ستردد اسمينا وتمزجهما كما تمزج أسمى عشيقين خالدين كروميو وجوليت وهيلويز وأبيلار » .

***

عرف هذا الحب في الأجواء الأدبية في باريس وغير باريس فقد عرف أيضاً في ايطاليا عندما زار ديموسيه وصاند ايطاليا عام ١٨٣٣ . تحدَّث عن هذا الحب الأدباء والشعراء كما نذكره نحن اليوم ونتحدث عنه . ولعل سبب ذلك شخصية العاشقين وعلو مقامهما في الأدب والأثر العميق الذي تركه هذا الحب في آثارهما الادبية ومحاولة كل واحد منهما انصاف نفسه . أما إذا تجاوزنا هذا جميعه . فلا يخرج حبهما عن حادث غرامي عادٍ مما نشاهده كل يوم على مسرح الحياة . فقد نحب ويخوننا الحب ، ويهجرنا ايرتمي في أحضان حبيب جديد . وقد نتعذب ونبكي ، وقد نصرخ ونصخب . فيظل كل هذا منطوياً في الصدور والقلوب ، ذلك لأنه ليس كل واحد ، جورج صاند أو الفريد ديموسيه ، فيرسل تلك الأنات الطويلة وتنبعث من أعماق قلبه تلك الصرخات المدوية ، في شعر زائع ، ونثر جميل ، هما من الآثار الانسانية الباقية على وجه الدهر .

قد يكون من الخير أن نخلد خلق موسيه وخلق صاند . فقد كتب بلزاك عن جورج صاند يقول : كنت أزورها وأتبادل وإياها الآراء في ساندو (وساندو هذا هو الكاتب جول ساندو أول عشاق صاند وأستاذها في الأدب) . ولقد كانت أكثر تعاسة مع موسيه منها معه ، وهي الآن في عزلتها تحكم على الزواج والحب حكماً قاسياً لأنها لم تجد فيهما غير ضيعة الآمال وخيبة الرجاء . الرجل الذي تحلم به نادر الوجود .. وسيظل نادراً طالما حافظت على خشونة طبعها الذي يجعلها لا تجد بسهولة من يحبها بصدق ووفاء . لها نفسية الفتيان ونفسية الفنانين ، ولها نفس أيضاً كريمة عفيفة . شكلها شكل رجل . هذا يوازي قولنا انها ليست امرأة بحيث لم أشعر وأنا أتحدَّث إليها في الأيام الثلاثة التي قضيتها معها بأني مضطر الى التحدث إليها في رفق ولين ، كما نتحدث عادة إلى السيدات .. أجل كنت أتحدَّث اليها كأني أتحدَّث الى رفيق ، وهي ذات فضائل باهرة ، ولكن المجتمع كان ينظر الى صاند من وجهة معكوسة .

« إنها من حيث الأخلاق مثل شاب في العشرين من عمره، فهي عفيفة حريصة، وهي فتانة في مظهرها وكانت تدخن كثيراً وترغب في الظهور بمظاهر الأمارة والوجاهة . وأخيراً هي رجل لأنها تريد أن تكونه، ولأنها خلعت عن نفسها شخصية المرأة فزالت عنها أنوثتها فالمرأة جذابة أما هي فمنفرة !

« ولقد قال عنها » الكاتب الكبير شارل موراس : في كتابه « عشاق البندقية » ديموسيه وصاند Les Amants de Venise لا سبيل الى انكار مقام صاند العالي بين كتّاب عصرها. وليس من الصعب على الأجيال المقبلة أن تنتزع من مؤلفاتها الكثيرة صفحات جميلة بارعة . كانت ذات نفس كبيرة كريمة مضيافة، أي انها كانت لا تستطيع الاحساس بما يسميه العامة الحب. وهناك فئتان من الناس تستطيعان هذا الاحساس بالحب . إما لنضوب العاطفة وإما لفيضها . عاشت حياتها كلها ممتزجة كل ما حولها باحساس قلبها . أو قل انها أحبت العالم وشغفت به . كانت تعشق كما لو كانت تتمتع ببعض مناظر الطبيعة من كل منظر طريف يستهوي العقل والقلب . لذلك لم تجد في الحب المنفعة واللذة . أما العشاق فكانوا يبهتون أمام نفسها الهادئة التي كانت تعنى بسعادتهم . ولقد أجمع عارفوها على أنها كانت حمقاء وغير جذابة في حديثها وانها كانت تظل صامتة . أما العبقرية فقد كانت تتجلى في عينيها الجميلتين اللتين احتفظتا بسحرهما حتى في أطوار الشيخوخة .

أما الفريد، ديموسيه فقد قال عنه شارل موراس، انه كان ابن جيله وعصره : نشأ عصبي المزاج، حاد الطبع، الى حد يقرب من الجنون، وشبّ سكيراً يدمن الشراب وعابثاً يلهو بالشباب والنساء، فلا يجد فيهنّ غير أداة متعة ولذة . ومقامراً يلعب حتى آخر درهم وحتى يخرج خالي الوفاض. وكان الى شاعريته العظيمة نقاداً بصيراً بمحاسن الحياة وأنواع الجمال وروائع الادب. كان يجمع الاضداد في نفسه. فبينما هو طيب القلب رقيق الحاشية محب للناس متواضع النفس على بساطة طبع وسلامة نية، اذا هو وكأن به شيطاناً يجعله شرساً متكبراً قاسياً كثير الظنون كثير الصخب ذا أثرة وعنت . أضف الى هذا تلك اللذة الكبيرة التي كان يجدها في الألم والحزن . ولقد جرى على نحو غريب هو ألاّ يعشق رغبةً في الحب، بل رغبة في الالم والوجيعة يبحث عنهما فلا يقر قراره إلاّ اذا ظفر بهما . ولقد جرى له أن صادف في حياته حبّاً هادئاً مطمئنّاً، فما لبث أن مله قلبه فصدّه عنه.

***

وابدع وصف لموسيه في لغتنا العربية ما قاله عنه الشاعر الكبير خليل مطران من قصيدة له :

عاش هذا الفتى محبًّا شقيًّا   وقضى نحبه محبًّا شقيًّا
وبكى دمع عينه في سطور   جعلته على المدى مبكيًّا
منشد للغرام لم يشد إلاَّ   كان إنشاده نواحاً شجيًّا
شاعرٌ كان عمره بيت تشبيب   وكان الأنين فيه الرويَّا
ان في نظمه لحسًّا لطيفاً   باقياً منه في السطور خفيًّا

كانت فترة التعارف والصلة بين موسيه وصاند قصيرة لأن صاند كتبت في صيف هذا العام الى « سانت بيف » تقول له ان الحب قد جمع بينها وبين موسيه وانه في حل بأن يذيع الخبر الى الاصدقاء . وما لبث موسيه أن انتقل الى منزل صاند الذي كان في شارع « رين » نمرة ١٩ فأقام معها . هذا في أغسطس عام ١٨٣٣ . ثم انتقلوا الى ضاحية « فونتنبلو » فأقاما خمسة عشر يوماً يقال أن اثناءها ابتدأ الخلاف بين العشيقين . على أن الرّواة يختلفون في هل كان بدء هذا الخصام في تلك الضاحية ، أم في باريس . وهم يذكرون أن موسيه رأى في أحد الايام وهو جالس في الغابة المشهورة . شبحاً يمر أمامه فظنه صورته في طور الشيخوخة . وقد نال منه الادمان والعبث والذعر فاضطرب وانطرح أرضاً كأن به مسًّا . وقد استوحى موسيه بعد هذه الرؤيا قصيدته (ليلة ديسمبر)أما الخصام فقد دبَّ بين العاشقين لاختلاف الرأي والعقيدة والاخلاق . فلقد كانت صاند ثائرة على الأوضاع الاجتماعية دؤوبة على العمل في جد واجتهاد ، بينما كان موسيه محافظاً محترماً للتقاليد محبًّا للاناقة والظهور كسولاً قليل الإنتاج أضف الى هذا اختلاف تباين السن إذ كانت تكبره بست سنوات ولم يلبث الخلف أن تعدى حدود ما تثيره الحياة بين أديبين مختلفين ذوقاً وأخلاقاً الى ماضي صاند . كان موسيه في أوقات ثورته ينعي عليها زواجها ويذكرها بعشاقها الذين أحبتهم قبله . ويعيرها بحياتها الخاصة ويشتد في تعنيفها ثم تخمد ثورته وتهدأ ، ويثوب الى رشده . فاذا ما انتهت تلك الثورة عاد اليها يسترضيها ويستغفرها فترضى عنه وتغفر له . ولما ضاقت بهما الحياة بباريس بين أصدقائهما الذين كانوا يعيدون الى ذهن موسيه ماضي عشيقته استقرَّ رأيهما على السفر الى البندقية لعلَّ الابتعاد عن الوسط الباريسي ينسيهما شقاءهما ، ويفسح للحب مجالاً أوسع. وذهبت صاند الى والدة موسيه فاستأذنتها في سفر ابنها واعدة أن تعني به عناية الأم بابنها وهكذا كان .

سافرا الى البندقية في احدى ليالي ديسمبر المظلمة وماكادا يصلان اليها حتى أصيبت صاند بمرض ألزمها الفراش خمسة عشر يوماً فكان سبباً في اثارة الخصام بينهما من جديد .

كان موسيه يقضي النهار وشطراً من الليل في زيارة المدينة والسهر في حاناتها ، وبمغازلة نسائها الجميلات فاذا عاد في ساعة متأخرة أمطر صاند وابلاً من اللوم والعتاب ذاكراً لها انه لم يأتِ الى البندقية ليعني بمرض بل ليتمتع بما في المدينة من جمال ولذة وانتهى بأن أوصد الباب الذي يصل غرفتيهما .

أبلت صاند من مرضها ولم تكد تسترد صحتها حتى مرض موسيه واشتدت عليه الوطأة فلجأت صاند الى الطبيب الذي عنى بها في مرضها . وكان شديد الحياء يكاد يجهل الفرنسية وكان يقضي نهاره ملازماً صاند ، وكانت الأديبة الفنانة قد تاقت نفسها الى تذوّق لذة الحب في البندقية مدينة اللذة والحب فلم تجد لديها غير هـذا الطبيب الشاب لأنها كانت لا تغادر المنزل الذي كانت تسكنه للعناية بالمريض .

هذه الأديبة الفنانة كانت إذن تعيش بين رجلين ، ويتجاذب قلبها عاملان ، فالواجب يدعوها الى العناية بالمريض ، وحب اللذة والاغراء يدفعانها الى ذراعي الطبيب . ولقد بحث الكتّاب طويلاً في سر هذه الليالي الطويلة . قالوا ان موسيه كان اذا ثاب اليه رشده وفارقته الحمى وجد صاند والطبيب « باجيلو » يتبادلان القبل اللذيذة الى جانب سريره ظنّاً منهما انه نائم فهل كانت هـذه الرؤية حقيقة أم هذيان محموم ؟ على انهما اذا لم يتبادلان القبل أمام موسيه فانهما تساقيا كؤوس الغرام صافية بعيدين عنه .

***

شفي موسيه من مرضه . فعاودته وساوسه وعاد الى خصامه ، ويروى انه حاول مرّة قتل صاند وانه طلب باجيلو للمبارزة ، وان صاند حاولت الانتحار .

وقيل لموسيه ان به مسّاً لادمانه الشراب واسرافه في معاشرة بنات الهوى ، فرضي بهذا التفسير لهياجه العصبي ، وعدّ نفسه مسئولاً عن الحياة اليائسة التي عاشتهـا صاند وصديقه الطبيب ، فبارك حبهما ، وقفل راجعاً الى باريس وهو قرير البال مرتاح الضمير ، بأنه قدّم نفسه ضحية على مذهب الحب .

عاد الى فرنسا في مارس عام ١٨٣٤ طاوياً في صدره رفيقين غريبين « حزن وفرح » لا آخر لها . أما الحزن فلأنه فارق عشيقته التي لا يزال يحبها . وأما الفرح فلأنه استطاع أن يطمئن الى سعادتها في كنف عاشق جدير بها .

جرت القطيعة بين موسيه وصاند ولكنهما ظلاً يتبادلان الرسائل . ولقد وصلت هذه

الخطابات بعضها كما كتبت ، وبعضها منقح بتصحيح لأن صاند طلبت بعد هذه الحوادث التي ترويها الى موسيه أن يبعث خطاباتها ففعل . فغيرت فيها ما غيرت بينما تركت رسائله كما كتبها . ظلَّ يتراسلان حتى عادت صاند الى باريس في شهر أغسطس من ذلك العام وقد جاء معها باجيلو . وشاء موسيه أن يلتقي بها بعد أن راجعته ذكريات حبه القديم فقبلت جورج صاند . ووافته في الموعد المضروب . وعلم باجيلو بهذا فرأى نفسه غريباً بين هؤلاء الأدباء والفنانين فتركهما وشأنهما وقفل راجعاً الى بلده ، واتصل العاشقان من جديد ولكن هذا الصلح لم يدم طويلاً . فقد ظلَّ بين نفور ووئام ، وصلح وخصام . ولقد حمل الحب صاند مرة الى أن تقص شعرها وتعطيه الى موسيه وفاءً لحبها . ولقد كان أصدقاؤهما وبخاصة سانت بيف وفرنسوا بوالوه موضع سرهما : ورسل الصلح بينهما . ولكن القلوب اذا تنافر ودها كما قال الشاعر العربي ... وفي مارس ١٨٣٥ هجرت صاند موسيه وسافرت الى نوهان .

***

كان هذا نهاية الحب . وحوادثه المزعجة المثيرة وبدأ بعد ذلك عهد آخر هو عهد الأدب والكتابة . كان موسيه قد وعد صاند أنه لن يموت قبل أن يؤلف عنها كتاباً كما كان يقول لها انه سوف لا ينبت على قبرها غير الزنبق الأبيض الطاهر لذلك كتب موسيه بعد هذه الحوادث قصته المشهورة اعترافات فتى من فتيان العصر Confession d'un Jeune homme du Siècle . وقد مثل صاند في شخصيتين مختلفتين شخصية العشيقة المستهترة الخائنة وشخصية الصديقة الوفية الطاهرة الذيل الأمينة العهد . فكتبت صاند ترد على قصته بأخرى بعنوان Elle et Lui ثم كتب بحث آخر عنوانه Lui et Elle ذكر فيه «ديموسيه» باعتباره الشخص الثالث في قصة هذا الحب . ونظم موسيه أروع قصائده في ذكرى صاند . فالليالي — اكتوبر — ديسمبر والذكرى وخطاب الى لامرتين والى أخي بمناسبة عودته من ايطاليا — من أجمل الشعر الفرنسي نظمها موسيه في حبه كما كتبت صاند في ذلك الحب غير القصة التي ذكرنا « ليليا » وخطابات مسافر .

***

أما قصيدة « ليلة مايو » فقد نظمها موسيه يوم ٦ مايو ١٨٣٥ في المنزل الذي كان يسكنه مع أمه وأخته .

كان موسيه قد قضى يوم ٦ مايو في حديقة التويلري وعاد الى منزله في المساء . وقد انتشى

من عبق الأزهار وجمال الربيع وما يوحيان للنفوس الشاعرة من آمال جديدة . **وكان يردد** الأبيات الأربعة الأولى من القصيدة وهي التي تخاطب بها إلهة الشعر الشاعر « **أيها الشاعر** خذ قيثارتك وهيء قبلة ... » فدخل غرفته وجلس أمام مكتبه بعد أن أنار اثنتي **عشرة** شمعة ، وأخذ ينظم قصيدته فما أتى الصباح حتى كان قد نظم المائتي بيت من الشعر التي **تألفت** منها القصيدة .

التفسير السيكولوجي

ان قصة ديموسيه وصاند تمثل الصراع الحديث بين المرأة والمجتمع . فديموسيه **كان يلهو** بصاند، ويرى فيما بينه وبين نفسه انها طفلة غير مسؤولة . هو كان يلهو بها ويكاد **لا يعترف** بوجودها أو بحقها في الحياة الزوجية أو في طبيعة مسؤوليتها في هذه الحياة . **فقد كان** يهملها ليرى ويسعد بالنساء الجميلات في البندقية.وكان إذا فرغ من لهوه عاد الى منزله **لينكر** وجود صاند . وهذه النظرة المهينة من ديموسيه لصاند فيها الحرج كل الحرج لها **ولكرامتها** كامرأة . وهذه النظرة هي التي حفزتها الى الهروب من الحياة المهينة . فدفعتها **الى حب** «باجيللو» وهي تعلم انها زوج لديموسيه . هي تريد أن تنكر ذلك الواقع الذي **يؤلمها والذي** يجعل حياتها ملتوية معقدة ، وهي تحلم بحياة جديدة ، فاذا ما وقفت الى تحقيق **هذا الحلم فقد** خرجت من نطاق الزوجية الى حيث الحياة الكريمة التي تفكر فيها أليست « صاند » **هذه** تمثل تلك المرأة التي خلقها « إبسن » في درامته « بيت الدمية » . **أليست هي المرأة التي** تفرض لها وجوداً معيناً في الحياة، بل أليست هي المرأة التي تريد أن تثبت **شخصيتها وترى** « أن الشخصية » شيء ثمين في المجتمع الانساني ينبغي أن تحصل عليه المرأة **مهما استطاعت** الى ذلك سبيلاً ؟

حليم متري

المراجع

(١) French Literature by Santisbury

(٢) Edward Dawden a history of French Literature

(٣) Amours d'hmmes de Lettres par Emile Faguet.

(٤) اشهر قصص الحب التاريخية لسلامة موسى

(٥) مجلتي — مقال للشاعر شيبوب

مكافحة الامية

ونشر الثقافة الشعبية

القانون رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤م. الصادر لمكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية خير قانون صدر في مصر منذ نشأتها للآن. إنه جدير بأن يسمى قانون إحياء الأمة المصرية وإحلالها المكان اللائق بها بين أرقى الأمم، ففي احيائه إحياؤها ورفعتها، وفي اماتته إماتتها وخفضها:

ذلك أن على الأمة المصرية — رضيت او سخطت — أن تساير أرقى الأمم في سبل الحضارة والتقدم وألاَّ تتأخر عنها قيد رمح، وإلاَّ فقدت مقوماتها ومميزاتها لضعفها، وفنيت في غيرها من الأمم القوية المحيطة بها فناءً لا مرد لها من بعده.

وكل أمة من هؤلاء الأمم الراقية المفروض على مصر مسايرتها في سبل الحضارة والتقدم رغم أنفها إنما تعتمد في رقيها وتقدمها على جهود جميع أبنائها الخاصة والعامة الذكور والاناث على السواء، فليس فيها من لا يعمل للرقي والتقدم.

فلا بد لمصر هي الأخرى من أن تعتمد في نهضتها على جهود جميع أبنائها الخاصة والعامة الذكور والأناث كالأمم الأخرى، وإلاَّ تخلفت عن ركب الحضارة واستحال عليها أن تشق للأمم الراقية غباراً لها فيه.

غير أن مصر لسوء الحظ ليس فيها من يستطيع خوض غمار العمل المطلوب في هذا الميدان ميدان الحضارة والتقدم الحديث الاَّ الخاصة من أبنائها، وهم فئة قليلة ممتازة كغيرها من الفئات القليلة الممتازة في الأمم الراقية. أما جمهور المصريين الاعظم وهو أكثر من أربعة أخماسهم فانهم لا يزالون على الفطرة أميين لا يقرؤون ولا يكتبون ولا يعرفون ألزم ما يلزم من العلوم والفنون والآداب والنظم والأخلاق التي لا بد لهم منها لأداء أعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية وغيرها من الخدمات العامة وللحياة المنزلية والاجتماعية الحديثة، ولمسايرتهم الفئة القليلة الممتازة في طريق الحضارة ومعاونتهم اياها على الأخذ منها بأوفر نصيب والانتفاع بها كغيرهم من عامة الشعوب الأخرى.

إن من المستحيل كل الاستحالة أن تطمع مصر في التحضر بالحضارة الحديثة وفي احتلالها المكان اللائق بماضيها المجيد، وبجلال موقعها، وجودة مناخها، ووفرة ثروتها، وحسن

استعدادها ، للرقي والرفعة بين أمم العصر الحديث عصر الطاقة الذرية ، ما دام هذا الفارق الكبير بين فئتيها الخاصة والعامة قائماً .

إنها حين تحاول النهوض والتقدم مع قيام ذلك الفارق الكبير بين خاصتها وعامتها ، تكون كرجل برجل واحدة يحاول أن يسابق عدّاءً ماهراً برجلين قويتين فلا يزال يكدّ ويسعى ويجاهد حتى يقعد به الأعياء في آخر الأمر بلا جدوى ، أو كطائر بجناح واحد يحاول أن يسابق طائراً جارحاً بجناحين ، فانه يتخبط وهو يضرب الأرض بجناحه الواحد دون أن يستطيع نهوضاً ، أو كسفينة بمجداف واحد ، أو بصف واحد من المجاديف ، تحاول أن تمخر في بحر خضمّ ثائر فلا تلبث أن تدور على نفسها وتبقى مكانها إنْ قُدِّر لها البقاء .

فلا بدّ إذاً لنهضة مصر وتقدّمها واحتلالها المكان اللائق بها بين أمم العصر الحديث من أن تقوم كما يقومون على رجلين بأن تعتمد في نهوضها على طائفتيها معاً الخاصة والعامة ، فيعمل أبناء مصر جميعاً كباراً وصغاراً ذكوراً وأناثاً متعاونين متكاتفين على وضع أساس الحضارة متيناً ، وعلى بناء صروحها شامخة ضخمة متينة على هذا الأساس المتين .

ولما كانت هذه الحضارة الحديثة التي لا بد لنا من التحضر بها — إذا شئنا أن نعيش أمة قوية عزيزة بين الأمم — قائمة في كل ناحية من نواحيها الحسية والمعنويّة ، الصغيرة والكبيرة ، الظاهرة والباطنة ، العامة والخاصة على العلوم ، والفنون والآداب والنظم الدقيقة ، والأخلاق المتينة ، فان كل محاولة للتحضر بها تذهب كصرخة في واد أو نفخة في رماد إذا لم يكن للفئة الكبرى وهي جمهور المصريين الأعظم الذي لا غنى عن استغلال جهوده في التحضر بهذه الحضارة نصيب ولو قليل من هذه العلوم والفنون والآداب ومكارم الأخلاق .

ولا سبيل لبلوغ جمهور المصريين الأكبر هذا النصيب من التثقيف والتهذيب إلاّ تنفيذ القانون رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤ م . الصادر لمكافحة الأمية ، ونشر الثقافة الشعبية ، تنفيذاً عاماً شاملاً في أقصر وقت ممكن . وهذا التنفيذ على هذا النحو لا يحتاج إلاّ الى أن تمتلىء صدور القائمين على تنفيذه رغبة وحماسة في هذا التنفيذ مع التفرّغ التام له دون غيره . وحشد الجهود الكثيرة الموفورة في مصر .

ان القوانين حبر على ورق فهي مواتٌ وانما يحييها القائمون على تنفيذها بما فيهم من رغبة وحماسة ، وتكون حياتها وانتعاشها ، على قدر تلك الرغبة وهذه الحماسة . فالمسألة من قديم الزمان مسألة نفوس لا قوانين وما أكثر القوانين التي ماتت عقب صدورها ، وما أكثر الأعمال العظيمة التي تمت بنجاح باهر بدون قوانين . ان الرغبة القوية تخلق الارادة القوية ، والارادة القوية تكتسح كل العقبات وتقيم أضخم الصروح .

والقانون المذكور لا يزال قائماً ولكنه لم يجد في وزارة الشؤون الاجتماعية الصادر منها وباسمها وهي المسئول الأول عنه، والقائل حضرة صاحب المعالي وزيرها في العدد الخاص ٥٩٩ من مجلة الاثنين والدنيا الصادر في ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٦٤ — ٣ من ديسمبر سنة ١٩٤٥ هذه الكلمة المأثورة : إن اصلاح العقول البور أهم وأجدى من اصلاح الأراضي البور ! لم يجد هذا القانون الرغبة والحماسة الجديرتين به واللتين لا بدَّ منهما لتنفيذه تنفيذاً عامًّا شاملا في أقصر وقت ممكن فجعلته عملاً صغيراً من أعمال كثيرة لا تحصى عهدت بها الى مربٍّ كبير نقل اليها من وزارة المعارف ، وكان الجدير بهذا المشروع الضخم أن يكون هو وحده كل عمل هذا المربي الكبير الذي كان مملوءًا رغبة وحماسة كفيلتين بنجاحه ، وأن يحشد مع ذلك لمعاونته أكبر عدد ممكن من الخبراء بهذا النوع من التعليم من دوائر الحكومة المختلفة ومن غيرها ، وهم لا يحصى عديدهم ، على أن ينفذ تنفيذاً كاملاً عاجلاً . على أن الوزارة لم تلبث أن لجأت بهذا المشروع الضخم الذي لا بدَّ منه لحياة الأمة وتقدمها الى وزارة المعارف على أنها المسئول الأول عن مكافحة الأمية، ونشر الثقافة الشعبية، من قبل أن تخلق وزارة الشؤون الاجتماعية بعشرات السنين .

غير أن القانون المذكور لم يصدر من وزارة المعارف ولا باسمها، فهي ليست مسئولة عن تنفيذه، فاستقرَّ المشروع أخيراً في أحضان كبير من كبار وزارة المعارف يضطلع بعمل جدير أن يستنفد كل جهوده وأوقاته ، على أن يقوم بتنفيذ هذا القانون باسم وزارة الشؤون الاجتماعية . فماذا ينتظر من انسان مثله مثقل بعمله الأصلي في شأن عمل إضافيّ كهذا ؟ انه بلا شك يسير فيه برفق سيراً بطيئاً فيتدرَّج فيه على سبيل التجربة . ومثل هذا العمل الخطير لا يليق به تدرّج ولا تجربة . إن مكافحة الأمية ، ونشر الثقافة الشعبية ، ليست كالنبات والحيوان والعقاقير وغيرها من الأشياء التي نزداد بها ترفاً ورخاءً، وليس لنا بها عهد، ولا كبير ضرورة، فنستقدمها من بلاد أخرى، ونجعلها محل تدرّج وتجارب. فان نجحت استكثرنا منها ، وازددنا بها خيراً ، وإن لم تنجح أهملناها ولم يضرنا إهمالها شيئاً.

إننا إذا أردنا أن نستنبت في مصر نباتاً غريباً حسن أن نستنبته في حقل ضيق على سبيل التجربة، فاذا نجحت التجربة تدرجنا في زراعته حتى نعممها وازددنا به نفعاً، واذا لم ننجح أهملناه بدون أن نخسر شيئاً يذكر . وإذا شئنا أن نربي فصيلة من حيوان غريب قصرنا التجربة على قليل منها ، حتى اذا نجحت استكثرنا منها شيئاً فشيئاً بالتدريج حتى نبلغ كفايتنا منه، وإذا لم ننجح ومات هذا القليل لا نكون قد خسرنا شيئاً وكذلك اذا شئنا أن نجرّب عقّاراً من العقاقير لابادة بعض الآفات الزراعية، أو لعلاج مرض من الأمراض، حسن

أن نقصر التجربة على أقل مقدار ممكن ، حرصاً منا على المال والجهد والأرواح أن تضيع بلا ثمرة .

أما مكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية فانها شيء آخر، انها أعظم عوامل تقدمنا ورقينا وعزتنا ومجدنا ، إنها محاربة عدو قديم وقد تدرَّجنا فيها وجربناهـا من آماد بعيدة في الكتاتيب وفي المدارس الأولية والالزامية، فاذا لم تكن هذه التجارب الطويلة أكسبتنا خبرة وقدرة على التنفيذ السريع. فلا أمل في نجاح تجارب جديدة على أننا إذا لم نكن جربناها فان الواجب يقضي أن نسارع الى تنفيذها بدون انتظار تجارب أو تدرُّج .

فلا بدَّ اذاً من المضيّ في هذه الحرب حالاً بدون هوادة ، فلو أن الجراد هجم علينا هجوماً واسع النطاق أفنجعل مكافحته محلاً للتدرج والتجربة ، فنقاومه في بعض المواضع على سبيل التدرج والتجربة ، ونتركه في غيرها يأتي على الأخضر واليابس، أم نقوم كلنا على بكرة أبينا قومة رجل واحد بكل ما نملك من وسائل ونحاربه حتى نقضي عليه، ولا يقعد بنا عن المقاومة خلل في الوسائل ولا نقص فيها وفي التجارب . ولو أن مرضاً كالملاريا هبط مصر وتفشى فيها تفشياً وبائيـاً فأصاب كالأمية أربعة أخماسها ، أفنجعل مقاومته محلاً للتدرج والتجارب، فنقاومه في ناحية ونتركه في سائر النواحي يعيث فتكاً وتنكيلاً بالمواطنين ، أم نقوم كلنا بكل ما لدينا من وسائل ضعيفة وقوية ونكافحه حتى نقضي عليه . ولو أن أمة هجمت علينا بكل ما تملك من قوى حديثة أفنجعل مقاومتها محلاً للتدرج والتجربة. فنتباطأ في محاربتها حتى نختبر أسلحتنا وقوتنا، وحتى تقضي هي علينا ، أم نقوم كلنا بما تيسر لنا من أسلحة قديمة وحديثة، وندافع مستميتين ، ونعمل ونحن ندافع على تعرف وجوه الضعف فينا والقوة في عدونا ، وعلى استكمال قوتنا، حتى نردها عن بلادنا مخذولة مدحورة . ألا تكون لنا عبرة فيما فعلت انجلترة حديثاً حين أخذت تقاوم أقوى دول العالم وحدها بأقل من ربع تسليح صامدة صابرة ، وتكد وتسعى وهي تحارب لاستكمال قوتها حتى استكملتها وانتصرت . اننا بلا شك أمة دعة وهدوء ، والجهاد فيه ثورة ومشقة تأباها طباعنا الوادعة الهادئة ، ولذلك نلجأ دائماً الى التجارب والتدرّج في كل شيء حتى فيما لا يحتملهما .

وأيّ فرق بين هؤلاء الأعداء الجراد والوباء والناس وبين هذا العدو الجاثم على صدورنا منذ القدم، وهو الأمية والجهالة الشعبية، إلاَّ أن الثلاثة الأولى حسية والأمية والجهالة الشعبية من الأمور المعنوية غير أنها أفتك بنا منها . وهل يخفى أمر هذه الأمور المعنوية وخطرها على الفئة الممتازة من الأمة المسئولة عن سلامة الوطن ونهضته وتقدمه التي تتباطأ في تنفيذ هذا القانون بلا مبرّر ظاهر.

اللهمّ ان مكافحة الأمية، ونشر الثقافة الشعبية، ليست كنبات أو حيوان غريب عن مصر يراد نقله اليها واستنباته أو تربيته فيها، وليست كعقار من العقاقير يراد اختباره فنجعلها محل تدرّج أو تجربة، وإنما هي عدوّ بل شرّ عدوّ لا تجوز الهوادة في محاربته، ولذلك سمي قانونها قانون مكافحة الأمية، والمكافحة هي المحاربة.

وعلى من وقع أخيراً عبء هذه الحرب؟ انه وقع على عاتق المدير العام للتعليم الأولي في وزارة المعارف حضرة صاحب العزة مصطفى شكري بك، وحضرته يعتقد في نفسه ما يعتقده فيه كل من له صلة قديمة أو حديثة بعيدة أو قريبة بالتعليم الأولي، ومنهم كاتب هذا المقال وهو أنه زعيم التعليم الأولي منذ زمن طويل مضى غير منازع، قد قضى فيه السنين الطوال، وبسط سلطانه عليه في القطر كله كل البسط، وعرف ما ظهر منه وما خفي، وما صلح منه، وما فسد، حتى أصبح أكثر الناس علماً وخبرة به حقًّا.

وانه بهذه السلطة وبهذه الزعامة اللتين طال أجلهما، وبعلمه وخبرته اللذين عظم شأنهما يُعدُّ أول المسئولين عن تعميم التعليم الأولي وعما أصابه من البطء، وانه بقبوله هذا العبء الثقيل الجديد، عبء تنفيذ القانون رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤ م. قد ضاعف تبعاته. وزاد ديونه لأنه بهذا القبول الأخير، قد حصر جميع الوسائل لمكافحة الأمية، ونشر الثقافة الشعبية في يديه وحده.

فاذا لم يكن قد وُفق فيما مضى لتعميم التعليم الالزامي النهاري، وهو الوسيلة الاصلية للقضاء على الامية من أساسها لعائق أو لعوائق اعترضته في السنين الخوالي فقد أصبح في يده وسيلة فرعية قوية لدك صروح الامية والجهالة الشعبية من أعاليها، وهي القانون رقم ١١٠ لسنة ١٩٤٤. المذكور، فان هذا القانون على قلة مواده لم يدع وسيلة لمكافحة الامية ونشر الثقافة الشعبية إلاّ ذكرها وكفلها. ولا عقبة تعترضها إلا ذللها ووضع في يدي القائم على تنفيذه كل القوى الجديرة بالاجهاز عليها وزوّده بكل ما يحتاج اليه، ولم يحدّه بوقت، ولا بمكان، فلم يبق لحضرته عذر بعد الآن في استمرار هذه الحالة حال الأمية والجهالة الشعبية المتفشيتين في البلاد، والعائقتين للأمة عن النهوض والتقدم، لأنه إذا لم يستطع القضاء عليهما من ناحية التعليم الأولي النهاري استطاع القضاء عليهما من ناحية التعليم الشعبي الليلي الصادر به القانون المذكور.

إن التعليم الأولي الالزامي ومكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية صنوان وكلاهما متمم للآخر فالتعليم الأولي الالزامي يجتث الأمية والجهالة الشعبية من قاعدتيهما، ومكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية، تجتثهما من قمتيهما فلا بأس أن تجتمعا في ادارة واحدة بل من

المستحسن أن يجتمعا فيها. فاذا كان ذلك كذلك، فقد وجب أن ينقل المشروع كله بقانونه إلى وزارة المعارف نقلاً تاماً فتكون هي المسئول الوحيد عنه، وأن يكون للمدير العام للتعليم الالزامي ولمكافحة الأمية مساعدان أحدهما يختص بالتعليم الأولي الالزامي النهاري، والآخر بمكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية الليلية على أن يكونا من عشاق هذا النوع من التعليم ومن الغيورين عليه، والمتحمسين فيه، وأن تستغل كل الأموال المرصودة لهما معاً وجهود كل الخبراء الكثيرين بهذا النوع من التعليم.

وليس بكثير على هذين العملين الجليلين أن تتولاهما ادارة لها مدير عام ومساعدان وأن تحشد لها كل القوى العاملة المثمرة، وأن تنفق عليهما كل الأموال المرصودة لهما، بل إنهما جديران أن تنشأ لهما وزارة خاصة.

لقد آن أن نقدر هذا المشروع قدره وأن نعدّ له ما يستحق من قوة وأن نسير فيه قدماً بسرعة الضوء. فلطالما تلكأ فيه تلكؤاً ضارًّا معيباً حتى أصبح لا يحتمل بعد الآن شيئاً من إضاعة الوقت في التقدير والتدبير والتفكير فقد تركتنا أمم أقل منا ثروة وحضارة. تفكر ونقدر وندبر. وقضت هي على الأمية والجهالة الشعبية لا بشيء إلاّ بأمرين اثنين هما الرغبة والحماسة.

فاذا سار حضرة المدير العام للتعليم الأولي في تنفيذ هذا القانون بالرغبة والحماسة اللتين يستحقهما، أمكنه أن يعوّض على الأمة الايام الطويلة التي أبطأ فيها تعميم التعليم الالزامي، غير أن هذه البداية الضيقة النطاق في محافظة القاهرة وست مدن من مدن مديرية الجيزة التي وضعت حدودها في وزارة الشؤون الاجتماعية قبل أن تدفع بمشروع مكافحة الأمية اليه بداية ضيقة، لا تليق بالمشروع، ولا بما يستحق من رغبة وحماسة، ولا بما أوتي القائم على تنفيذه من وسائل وقدرة وعلم وخبرة به

والواجب الآن إذا كان تعميم المكافحة في القطر كله من الآن مستحيلاً ألا يقصر التدرج في هذه السنة على محافظة القاهرة ومدن مديرية الجيزة الستة، بل لا بد من مضاعفة الجهود والنشاط لانشاء أكبر عدد ممكن من مدارس المكافحة في أنحاء القطر المختلفة بدون تقيد بعدد معين منها، ولا بزمان ولا بمكان، وبدون تراخ في الجهود وفي النشاط طوال هذه السنة. فلعلّ ذلك يعين على فتح عدد كبير جدًّا من هذه المدارس في هذه السنة وعلى فتح البقية الباقية منها في السنة الآتية أو فيها وفي التي تليها على الأكثر، ولا يجوز أن يتأخر التعميم عن ذلك

عبد الله أمين

أحساب الدولة الفاطمية

اختلف المؤرخون قديماً وحديثاً في نسب عبيد الله المهدي رأس الأسرة الفاطمية فقال بعضهم مثل ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان ، والذهبي في كتابه تاريخ الاسلام وغيرهما، إن نسب الفاطميين مدخول عليهم، وأنهم منه كمن يدعي أن النحاس من الذهب، وانهم ينتمون أصلاً الى رجل مجوسي هو عبيد الله سعيد ابن الحسين بن احمد بن عبد الله القداح ابن أبي شاكر ميمون بن دَيْصان الثنوي المذهب، لأنهم يقولون بوجود الهين الـه النور والـه الظلمة ، وديصان هو ابن سعيد الغضبان ، صاحب كتاب الميدان في نصر الزندقة . أصله من كور الأهواز من المجوس . وكانوا يقولون لكل شيء من العبادات باطناً ، وان الله تعالى ما أوجب على أوليائه صلاةً ولا زكاةً ولا صوماً ولا حجاً ، ولا حرّم عليهم شيئاً من المحرّمات، وان هذه العبادات عذاب على الأمة ، كما كانوا يبيحون نكاح البنات والاخوات. وكان من رأيهم أن الأنبياء طلاّب رئاسة ، فهم لذلك محتالون كاذبون ، وانهم كانوا يظهرون التقشف والزهد والتصوف وكثرة الصلاة والصيام ويأمرون الناس بذلك وهم على خلافه ، وانهم كانوا يظهرون التشيع والبكاء على أهل البيت ، ليخدعوا ضعاف العقول، وأن عبد الله ابن ميمون رتب سبع دعوات يتدرّج فيها الشخص الى الكفر .

أو هم يهود ، إما لأن الحسين لما قدم الى سلمية (من أعمال حمص الشام) جرى بحضرته حديث النساء، فتزوج بامرأة رجل يهودي حداد بسلمية هي أم سعيد وكانت بارعة الجمال . وقد مات عنها زوجها ولها ولد من اليهودي فأحبه وأدّبه. ولما لم يكن له ولد عهد الى ابن اليهودي الحداد هذا بالعلامات، وعرّفه أسرار الدعوة وبالأموال وأرشده عن الدعاة ومكانهم، ثم زوّجه ابنة عمه محمد بن أحمد المكنى بأبي الشلعلع، وطلب الى أصحابه أن يقوموا بطاعته وخدمته ، فكان هو الامام عبيد الله المهدي الهاشمي النسب .

وإما لأن صاحب سجلماسة « اليسع بن مدرار » لما رأى جيوش الشيعي قادمة لتخليص المهدي وابنه القائم ، وكانا قد سجنهما وتيقن من انهزام جيوشه أمام جيوش الشيعي ، قتل المهدي وفرَّ في ظلام الليل، وان الشيعي لما دخل سجلماسه وعلم خبر موت المهدي تخوَّف من كتمانه لأنه كان يعدهم بخروج المهدي وتملكه الأرض، خشى زوال ما بيده، فأخرج لهم رجلاً يهوديًّا كان يخدم الشخص المقتول، وقال لهم هذا امامكم وامام الاسماعيلية .

وذهب آخرون كابن الاثير في تاريخه الكامل ، وابن خلدون في مقدمته ، والمقريزي في خططه، وفي اتعاظ الحنفا وغيرهم، أن النسب صحيح وأنه علوي فاطمي إذ هو عبيد الله بن الحسن ابن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وأكبر الظن ان نسب عبيد الله المهدي صحيح الى فاطمة الزهراء والامام عليّ. ودليلنا على ذلك الحوادث الآتية :

١ — احتفظ أشبال الامام علي بمكانتهم الرفيعة بين الشيعة ، وكان هؤلاء الأحفاد بحمد الله وفرة في العدد ، فلا يعقل أن شيعتهم يعرضون عنهم للدعاء لابن مجوسي أو ابن يهودي

٢ — لوكان في نسب الفاطميين مغمز لما خضع لأمامتهم يحيي بن ادريس بفاس أو سلالة الحسن بن زيد العلوي باليمن، أو الحسن بن جعفر الحسني بمكة ، أو الأمراء من بني الحسين بالمدينة وغيرهم . وكلهم سادة علويون فيهم العالم بالانساب ، يهمهم الذب عن نسب الرسول

٣ — لو لم يكن عبيد الله المهدي من النسب الشريف لما نزل سلمية مستخفياً خوفاً من بطش الخليفة العباسي المكتفي بالله . واذا لم يكن اماماً علويًّا صحيح النسب من أهل البيت لما تواترت كتب الخليفة العباسي بأوصاف المهدي لولاته على مصر وبرقة وطرابلس وافريقية والمغرب للقبض عليه .

٤ — يقول ابن طاهر في كتابه أخبار الدول المنقطعة المخطوط الفوتوغرافي ورقة ٤٠ «ان الشيعي لما دخل (سجلماسة) وعلم خبر موت المهدي . . . أخرج لهم رجلاً يهوديًّا » . ومن يبحث هذه الواقعة مسترشداً بمشعل النقد، يرى أن هذا المؤرخ اعتمد على مجرد النقل، سواء أكان غثًّا أم سميناً ، إذ كيف عثر الشيعي على هـذا اليهودي بهذه السهولة مع وجود « القائم » ابن المهدي ، أليس من المنطق والمعقول انه اذا كان قد قتل المهدي حقيقة ولم

يقتل ابنه كما هي رواية ابن طاهر، أن يجلس الشيعي ابنه القائم مكانه ؟ !

بل لو فرض جدلاً ان اليسع ابن مدرار صاحب سجلماسة عند ما هرب ليلاً، قتل المهدي وابنه، وهو ما لم يقل به أحد هنا، أبلغت البلاهة بالشيعي أن لا يفكر حتى في مسلم ولو غير علوي ليجلسه مكانه .

٥ — قال نفس المؤلف في نفس المخطوط ص ٤٧ « لما دخل مصر (أي المعز لدين الله) لقيه أشرافها، وخاطبه من بينهم الشريف عبد الله بن احمد بن طباطبا الحسيني. وقال له: الى من ينتسب مولانا ؟ فقال: سنعقد مجلساً ونجمعهم فيه ونسرد لهم نسبنا. ولما استقرّ بالقصر جمعهم في مجلس وجلس لهم وقال: هل بقي من رؤسائكم أحد ؟ فقالوا لم يبق معتبر، فسلّ عند ذلك لهم نصف سيفه . وقال: هذا نسبي. ونثر عليهم ذهباً كثيراً. وقال هذا حسبي، فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا ، وانصرفوا من عنده ».

هذه قصة في رأينا سخيفة غير منطبقة مقدمتها مع مؤخرتها ، رجل تصوّره الرواية على أنه شجاع، يعترض الخليفة وهو في أوج عظمته، ويسأله عن نسبه، ثم تصوّره بعد ذلك بالجبن، لأنه سكت عند ما سمع ما سمع من الخليفة .

ثم كيف سمح جوهر لرجل عُرف بين الناس بالطعن في نسب مولاه المعز لدين الله بأن يبقى حرًّا طليقاً حتى يوم قدوم الخليفة ليلقاه بهذه المثالب .

ثم هي رواية فيها يعتد الخليفة بقوته وماله ولا يعتد بامامته وهيبة انتسابه لآل البيت مما نلحظها دواماً فيه .

ويكفي لهدمها أن نقول أن ابن طباطبا مات سنة ٣٤٨هـ وإن المعز لدين قدم لمصر سنة ٣٦٢ هـ .

٦ — فاذا أضيف إلى ذلك أن الكلام في نسب العبيديين لم يخلق إلاَّ في أول القرن الخامس الهجري، حين بلغت الأحقاد والأضغان أقصى مداها ، وعند ما توغل الفاطميون في أملاك الدولة العباسية وبسطوا سلطانهم في ثلاث من حواضر الاسلام الكبرى ، المدينة، والفسطاط، ودمشق، وبعد أن أقيمت لهم الدعوة بالمغرب كله وبالبلاد المصرية وسوريا واليمن والحرمين وبعض بلاد الجزيرة ، وحين ضيقوا المسالك في وجوه العباسيين حتى في بغداد

نفسها حاضرة خلافتهم. فهنا وهنا فقط كتب الخليفة العباسي القادر بالله محضراً في بغداد في ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ وهو خصمهم وأخذ فيه خطوط القضاة والأئمة والاشراف ينفي نسب الفاطميين من علي بعد أن ملأه باللعن المزري ، والقدح المشين في انسابهم وعقائدهم لتنفير الناس منهم .

ونرى أن هذه الصحيفة يعوزها الدليل العلمي، لأنها قائمة على مجرّد السماع، خصوصاً وأن موقعيها كانوا تحت تأثير الخليفة. وأكبر دليل على ذلك عدول أحد الشهود عما قرّره فيها . فقال :

ألبس الذل في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ي اذا ضامني البعيد القصي
لفّ عرقي بعرقه سيد النا س جميعاً محمد وعلي

فلما علم الخليفة القادر بالله العباسي ، أن الشريف الرضي كتب تلك الأبيات التي تثبت صحة نسب العبيديين ولم يودعها ديوانه خوفاً من العباسيين، استدعى والده الشريف ، فحلف انه لم يسمع بها، فطلب أن يعتذر الشريف الرضي للخليفة العباسي، وأن يطعن في نسب المهدي. فلم يرض الشريف الرضي ، فهدده والده بألاّ يقيم معه في بلد . فحلف له فقط أنه لم يقل هذه الأبيات، وبقي امتناعه عن الاعتذار، وعن كتابه طعن في نسبهم، كما كان يريد الخليفة العباسي، أدلة ساطعة على صحة نسبهم .

عطيه مصطفى مشرفه

المراجع

ابن طاهر اخبار الدول المنقطعة المخطوط الفوتوغرافي ورقة ٣٩و٤٠
وابن الاثير في تاريخ الكامل ج ٨ ص ١٨ (طبعة ليدن) وأبو شامة كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠١ ,القاهرة ١٢٨٧ هـ)
وابن خلكان وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٨٧ (بولاق ١٢٨٣ هـ)
والنويري نهاية الارب المخطوط ج ٢٦ ورقة ٢١و٢٢و٢٤و٢٥
وأبو الفدا المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤ (طبعة الحسينية)
والمقريزي الخطط ج ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩ و٢٣٣ — ٢٣٤
وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٥ — ٧٧ (القاهرة ١٩٢٩ م)
وابن اياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٥و٥٦ (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢)
وأبو العباس احمد الغمري كتاب ذخيرة الاعلام المخطوط ورقة ١٠٩

المدرسة الخاتونية البرانية

بدمشق — ٣

الخطأ السادس(١)

يقول الأستاذ بالذيل ص ٢١١ (عن المدرسة) الخاتونية البرانية « انها كانت باقية الى زمن ابن كنان لأنه قال في « المروج السندسية بتاريخ الصالحية » ص ٢٧ « جامع الخاتونية فيه درس حديث في الأشهر الثلاثة » .

ثم ينقل عن العلموي (المؤرخ) أن أول من هدمها ونقل رخامها الى مدرسته سيباي . اه

وبعبارة أخرى أن هذه المدرسة كانت موجودة في عهد ابن كنان حتى هدمها سيباي

فهل هذا صحيح ؟

اننا نعلم أن سيباي كان كافل الشام أي أميرها ونائبها من قبل دولة السلاطين المماليك وهو آخر كفالها حيث زالت هذه الدولة بهزيمة السلطان قانصوه الغوري وسقوط سوريا ومصر في يد السلطان سليم العثماني ٩٢١ / ٩٢٢ ه .

وقد بنى سيباي مدرسته الشهيرة بباب الجابية بدمشق ٩١٥ ه وهي التي نقل اليها آلة ورخام المدرسة الخاتونية البرانية بعد أن هدمها .

ونعلم أن العلموي الذي يروي هذه القصة توفي ٩٨١ ه . وفي عهده كانت المدرسة مهدومة

وان ابن كنان هو من رجال القرن الثاني عشر الهجري وقد توفي سنة ١١٥٣ ه .

فكيف يصح في الأذهان ان تكون هذه المدرسة «باقية الى زمن ابن كنان» كما يقول الأستاذ أسعد أي الى منتصف القرن الثاني عشر الهجري مع انها هدمت قبل ذلك (في عهد سيباي) بأكثر من مائتي سنة ؟

وكيف يمكن أن يكون ابن كنان سابقاً لسيباي ؟

---

(١) ظهر الجزءان الاول والثاني من هذا البحث في عددي نوفمبر وديسمبر الماضيين من المقتطف ، في تحقيق مساجد دمشق وتعريفها الى القارىء وتصحيح الاخطاء التي وقعت في كتاب « ثمار المقاصد في ذكر المساجد » الذي ألفه يوسف بن عبد الهادي ونشره الاستاذ أسعد **طلس**

ألم يكن في كل هذا ما يلفت نظر الأستاذ الى أن « جامع الخاتونية » الذي يتكلم عنه ابن كنان هو معهد آخر غير المدرسة الخاتونية البرانية» التي يعنيها العلاوي ويروي قصة هدمها !

تصحيحات أخرى

الآن وقد انتهينا من اثبات أن مسجد تربة الخاتون بالجبل هو المسجد الجديد جنوبي الشركسية . فلننظر ماذا يقول الأستاذ أسعد عن هذا المسجد .

مما يؤسف له حقا إن هذا الكتاب الذي نصححه مشحون بالأخطاء بدرجة غير عادية بحيث يحار المرء هل يصحح التواريخ أو الأسماء أو المواقع أو عهود البناء . ؟ وهل يصحح المتن أو الحواشي أو الذيل ؟ . ان تعقب أخطاء الأستاذ أسعد واحصاءها وتصحيحها يستدعي مجلداً ضخماً في حجم الكتاب نفسه إن لم يكن أكبر منه وهو واجب سنقوم به حتماً خدمةً للعلم وغيرةً منا على تراث مجيد اشتركت في تخليده همم أعاظم الرجال والنساء وعبقريات أهل العلم والفن والصناعة وجهود أجيال طويلة متعاقبة . فلا يصح أن يؤخذ على انه هزؤ أو ألاعيب أو تسلية وتزجية فراغ أو وسيلة للتعالم والادعاء والظهور .

أولا — يقول الأستاذ أسعد في المسجد رقم ٥٩ بالذيل صحيفة رقم ٢٠٤ « الجامع الجديد بالصالحية ... ... هو تربة السيدة عصمة الدين خاتون بنت معين الدين انر زوجة نورالدين ثم صلاح الدين أنشأتها سنة ٥٧٥ ثم وسعتها وعملت معها جامعاً ؟ . . — الخ . »

ولا ندري من أين أتى الأستاذ بهذا التاريخ فاللوحة التذكارية التي لا يزال منقوشاً بها اسم عصمة الدين خاتون والتي لا تزال موجودة بالواجهة الشرقية للجامع الجديد قد ذكر بها التاريخ سبع وسبعين وخمس مائة . والى القارىء نص هـذا النقش التاريخي كما نقلناه ولدينا الآن بمجموعتنا الخاصة طبعة منه بالحجم الطبيعي .

السطر الأول : بسم الله الرحمن الرحيم .
السطر الثاني : أمرت بانشاء هذه التربة المباركة الفقيرة الى رحمة .
السطر الثالث : الله الراجية لرضوانه الخاتون الأجلة السيدة .
السطر الرابع : الكبيرة المالكة العادلة عصمة الدنيا والدين شرف .
السطر الخامس : الخواتين تاج نساء العالمين ابنة الشهيد السعيد .
السطر السادس : الغازي المجاهد معين الدين سيف اسلام .
السطر السابع : قدّس الله روحه في شهور سنة سبع وسبعين وخمس مائة .
طول اللوحة ٨٢ × ٥٢ سنتمتر .
سعة السطر ٨ و ٦ سنتيمتر .

طول قائم حرف الألف بأول الكلمات كنموذج قياسي ٦ سنتيمتر في المتوسط .

نوع الكتابة : نسخ أيوبي .

فصحة التاريخ هي سنة ٥٧٧ لا سنة ٥٧٥ كما ذكر الأستاذ أسعد . وهذا هو تاريخ انشاء التربة كما يظهر ذلك من السطرين الثاني والسابع . أما تاريخ وفاة هذه السيدة ودفنها فيها فهو سنة ٥٨١ هـ . أي بعد انشائها بأربع سنوات .

* * *

ثانياً — وقد نقل الأستاذ أسعد النقش التاريخي الموجود على باب الجامع الجديد وذكر في صحيفة ٢٠٥ هكذا .

« بسملة : أنشأ هذا الجامع المعمور بذكر الى (١) تعالى مما أنعم (٢) الله على عبده الفقير الى الله تعالى سليمان بن حسن العقيري (٣) التاجر تقرباً الى الله (٤) باريه الكريم وذلك بتولي الفقير الى الله تعالى علي ابن التدمري في شهور سنة تسعين (٥) وسبعمائة غفر الله لهما » اهـ .

وتصحيحاً لقراءة الأستاذ أسعد نرى واجباً علينا أن نذكر هنا النص الصحيح لهذا النقش فقد شاهدناه في موضعه وأخذنا عنه طبعة بالحجم الاصلي هي الآن في مجموعتنا الخاصة بنقوش دمشق التاريخية الأثرية .

وهذا النقش سطران كبيران . عرض السطر ٢١ سم :

السطر الأول : أنشأ هذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى مما أنعمه الله تعالى على عبده الفقير الى الله تعالى سليمان

السطر الثاني : ابن حسن الغفري التاجر تقرباً الى ربه الكريم وذلك بتولي الفقير الى الله تعالى علي ابن التدمري في شهور سنة تسعه وسبعمئه غفر الله لهما . .

فالكلمات الواردة خطأ في قراءة الاستاذ أسعد هي :

بالسطر الأول	١ — بذكر الى	صحتها بذكر الله
« «	٢ — مما أنعم	« مما أنعمه
« الثاني	٣ — العقيري	« الغفري أو العقري
« «	٤ — تقرباً الى الله باريه الكريم	« تقرباً الى ربه الكريم
« «	٥ — سنة تسعين وسبعمائة	« تسعة وسبعمئة

ولا ندري كيف ينقل الأستاذ أسعد عن النعيمي هذا التاريخ ويذكره في آخر صحيفة رقم ٢٠٤ في عبارة نصها « وذلك بتولي ابن التدمري سنة ٧٠٩ » ثم يأتي هو بعد ذلك

فيقرأه في موضعه وينقله في كتابه بعد أربعة أسطر فقط في صحيفة ٢٠٥ ويقول انه سنة ٧٩٠ هـ .

والظاهر انه تسرَّع في القراءة بدليل أخطائه الكثيرة فيها. ولعله أراد تصحيح عبارة النعيمي فوقع هو في الخطأ .

ونحن نلفت نظر القارىء للملاحظات الآتية :

١ — في كلمة ربه من عبارة تقرباً الى ربه الكريم نقلها هو باريه وحقيقة الباء والألف انها تكملة كلمة تقرباً ولا علاقة لها بكلمة ربه — فأضاف هو من عنده كلمة الله وكرر الباء والألف فصارت تقرباً الى الله باريه .

٢ — في كلمة العقيري نجد نقطتين إحداهما فوق الغين والثانية فوق الفاء إذا كانت الكلمة الغفري فاذا اعتبرناهما نقطتين للقاف كانت الكلمة العقري . ولا توجد نبرة لياء العقيري الوسطى، ولا نقطتان لها أسفل الكلمة . وانما توجد نقطتان فوق الراء وتحت الياء الاخيرة المنفصلة لأن هذه الياء مكتوبة فوق الراء .

وقد جرت العادة في أمثال هذه الياءات الأخيرة أن توضع تحتها نقطتان وفي هذا النقش نفسه نجد ذلك في كلمات بتولي وعلي والتدمري .

أما قراءة النعيمي لها بالعقيري وأخذ من أتى بعده بهذه القراءة من أمثال العلموي وسوفير فأساس الخطأ فيها قراءة النقش عن بعد وعدم دراسته بدقة كافية .

(انظر النعيمي ج٢ ص ٤٥٠ / ٤٥١ والعلموي ص ١٢٧ / ١٢٨ وسوفير المجلة الاسيوية ص ٢٣٦ / ٢٣٧ سبتمبر ـ اكتوبر ١٨٩٥

٣ — فيما يتعلق بالتاريخ وأنه « تسعة وسبعمئة » وليس تسعين وسبعمائة كما يقول الاستاذ أسعد

نقول أولاً : أن الكلمة الأولى لا يمكن أن تكون تسعين لعدم وجود نبرة للياء ولا نقطتان لها من أسفل وكذلك لا توجد نقطة للنون اذا كانت الكلمة تسعين .

ثانياً — والموجود فعلاً تاء مربوطة أخيرة عليها نقطتان نجدهما أعلا حرف العين وهما كبيرتان وظاهرتان بوضوح تام .

ثالثاً — وكذلك هذه التاء المربوطة الأخيرة في « تسعة » تشبه التاء المربوطة في كلمتي سنة وسبعمئة . وكذا الهاء في كلمة الله مع امتدادها الى أسفل أكثر قليلاً .

رابعاً — ان الكلمات المنتهية بحرف نون مثل ابن وحسن فيها النون على شكل قوس أقرب الى الاستدارة هكذا ابن . حسن فلو كانت الكلمة تسعين لكانت كتبت نونها

الأخيرة وفقاً للاسلوب الكتابي نفسه الذي اتبع في كتابة هاتين الكلمتين .

هذه هي البراهين المستمدة من دراسة حروف النقش ومقارنتها وزيادة في التأكيد وقطعاً لكل لبس ننقل هنا رواية شاهد عيان معاصر هو المؤرخ شمس الدين الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ . قال :

« توفيت (عصمة الدين خاتون) رحمها الله تعالى في ذي القعدة (سنة ٥٨١) هـ ودفنت بتربتها وبلغ السلطان (صلاح الدين الأيوبي) وفاتها وهو مريض بحران فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف وكان يصدر عن رأيها .

وفي زماننا وسعت تربتها وعملت جامعاً وأقيمت فيه الجمعة وغيرها . انتهى .

(أنظر النعيمي باب المدرسة الخاتونية الجوانية بمحلة حجر الذهب الدارس حـ ١ ص ٧٤٢)

فلا يمكن إذن أن يكون تاريخ ذلك سنة ٧٩٠ كما يريده الأستاذ أسعد بل هو سنة ٧٠٩ لأن الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨ هـ يقول ان هذا التوسيع كان في زمانه وربما كان أحد المصلين بهذا الجامع عند تمام هذه العمارة .

وقد ذكرنا من قبل أن التتار وصاحب سيس شرعوا يوم السبت النصف من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هـ في نهب الصالحية ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرفية (بالصالحية) الخ أنظر ابن كثير مجلد ١٤ ص ٨

وأشار المقريزي الى هذا الحادث في السلوك جـ أول ص ٨٩٢ بقوله « وكان سبب نهب الصالحية أن متملك سيس بذل فيها مالا عظيماً وكان قد قصد خراب دمشق عوضاً عن بلاده فتعصب الأمير قبجق ولم يمكنه من المدينة ورسم له بالصالحية فتسلمها متملك سيس وأحرق المساجد والمدارس وسبي وقتل وأخرب الصالحية الخ »

ونتيجة ذلك أن هذا المسجد احتاج للعمارة بعد خرابه في هذا الحادث فتمّ ذلك في سنة ٧٠٩ أي بعد عشر سنوات فقط من الحادث لا بعد تسعين سنة كما يريده الأستاذ أسعد

كلمة ختامية

ولا نريد أن نختم بحثنا دون أن نوجه هذه الكلمة الى الأستاذ . فقد جاء بصحيفة ١٨٧ في مقدمة « الذيل » الذي ألحقه بكتاب ابن عبد الهادي ما نصه : —

« هذا ذيل وضعته لكتاب « ثمار المقاصد » »

(١) أحصيت فيه مساجد دمشق الموجودة الى نهاية عام ١٣٦١ هـ (= ١٩٤٢ م)

(٢) وقد زرتها واحداً واحداً فوصفت منها وصفاً مطولاً ما كان جديراً به واختصرت

في وصف المساجد الحديثة وقليلة الشأن .

(٣) وقد حاولت تعيين زمن كل واحد معتمداً في ذلك اما على ما عثرت عليه من نصوص المصادر التاريخية ... واما على ما قرأته في جدرانها من كتابات ونقوش . . . واما على طرز البناء وأسلوب عمرانه . وقد أعانني في هذه الناحية المهندس الأستاذ ا كوشار ... الخ » اه .

ونقول اننا حاولنا أن نرى تحقيق ذلك جميعه في مسجد الخاتونية البرانية فلم نظفر بطائل بل لم نعرف السبب الذي من أجله ذكر هذا المسجد بالذيل لأنه لا وجود له بمدينة دمشق « في نهاية عام ١٣٦١ هـ = ١٩٤٢ م » بل لم يكن موجوداً في القرن السابق ولا في الذي سبقه .

والأستاذ نفسه ينقل عن العلموي ان الخاتونية البرانية هدمها سيباي كافل دمشق وأخذ رخامها وآلتها في بناء مدرسته . وقد حدث ذلك سنة ٩١٥ هـ . أي من نحو ٤٥٠ سنة .

وبما انه غير موجود فهو لا ينطبق عليه أي غرض من الأغراض التي ذكرها الأستاذ وأوضحناها أعلاه والتي من أجلها يصح أن يذكر بالذيل .

ونحن نسائل الأستاذ : ألم يكن الأفضل بدلاً من حشو « الذيل » بمساجد لا وجود لها ، أو مساجد تافهة لا أهمية دينية أو تاريخية أو أثرية أو فنية لها ، بل ان بعضها لا يصح أن يطلق عليه اسم مسجد لأنه لا ينتفع به للصلاة وهو أقرب الى الخربات أو الساحات المهملة . ألم يكن الأفضل أن يترجم في هذا الذيل لبعض المساجد ذات الأهمية التاريخية والفنية والاثرية التي تزدان بها مدينة دمشق من أمثال المدرسة الرشيدية بالميدان الفوقاني ، والمدرسة العادلية البرانية بالمهاجرين ، وقبة الحمراء بجادة المدارس ، والمدارس الشبلية والبدرية والحافظية بطريق الشبلية وعين الكرش وغيرها كثير أحصيناه وسنتكلم عنه في مقالتنا التالية وما ذكرنا هنا إلاّ القليل من المساجد ذات الأهمية التي لا تخفى على فطنة الأستاذ لما فيها من آيات الصناعة الأيوبية أو المملوكية والتي يعد اسقاطها من ثبت آثار دمشق ومساجدها جناية على تاريخ هذه المدينة التي عانت من ويلات التاريخ المتعاقبة ما أفقدها من كنوز الفنون والصناعات ما كانت جديرة أن تزهو به على الكثير من مدائن الدنيا .

لقد أزعجنا ما أخذناه على الأستاذ أسعد من أخطاء كثيرة جداً في نشر كتاب « ثمار المقاصد» والتذييل له. وقد صححنا العشرات منها بأبحاث مستوفاة توخينا فيها اظهار الحقيقة حسبما وسعته طاقتنا وسمح به وقتنا وكان رائدنا وسيظل دائماً التزام الخطة التي أخذنا بها أنفسنا وهي أن نقرن كل قول بالدليل عليه حتى تقوم الحجة ويتضح وجه الصواب . خدمةً للعلم وإحياءً لتاريخ هذه المدينة الزاهرة وبعث أمجادها المطوية .

« القاهرة » السمير محمد رجب

علم السياسة

طبيعته وأساليبه

من أجل أن نتفهم طبيعة علم السياسة ومداه ، يحسن بنا أن نلخص الموضوعات التي يشتمل عليها حتى نعرف طرقه ونعين الحدود التي تفصله عن سائر العلوم الأخرى الوثيقة الصلة به . ويحسن كذلك تعريف بعض المصطلحات السياسية الأساسية .

وعلى النقيض من التعريفات الدقيقة المضبوطة للعلوم الطبيعية ، فان مصطلحات علم السياسة كثيراً ما تستخدم في المخاطبات العادية دون عناية أو تحفظ ، وتنسب اليها معانٍ مزدوجة فضلاً عن أنها كثيراً ما تشوّه عمداً بأن تنسب اليها معان تتفاوت جمالاً وقبحاً وفقاً لما تمليه الأغراض الحزبية أو الوطنية .

طبيعة علم السياسة

يمكن تعريف علم السياسة بأنه علم الدولة . وهو يعالج شؤون العلاقات بين الأفراد الذين يؤلفون وحداتٍ سياسية وينظم حكوماتهم وأعمالهم فيما يتعلق باصدار القوانين والتشريعات وتنفيذها، والاشراف على العلاقات الداخلية . فهو يعنى بالعلاقات بين الأفراد الخاضعين لقوانين الدولة ، وبعلاقة الأفراد أو الجماعات بالدولة ، وعلاقة الدولة بالدول الأخرى ، ويعالج مشكلة التوفيق بين السلطة السياسية والحرية الشخصية . ويهتم بنوعٍ خاص بالدولة ، والحكومة ، والقانون . ولا يقتصر اهتمام علم السياسة على النظم السياسية وحسب، بل يتعداها الى النظريات السياسية أيضاً ، وهي تشمل نظريات الفلاسفة السياسيين عن الدولة ، والقوانين السياسية العامة التي تشكل تفكير الشعب السياسيّ . وكان للنظريات والمُثل العليا السياسية تأثيرٍ قوي على تطور الدولة وتقدمها ، وخاصة بعد ما شرع الانسان يتحكم في ما كان يعدُّ قبلاً نموًّا لا شعوريًّا وأصبح يوجهه ويغيره .

ويبحث علم السياسة من الوجهة التاريخية في أصل الدولة ونشأتها، وتطور النظم والنظريات

السياسية في العصور الغابرة ، وهو يوجه الحركات والاتجـاهات السياسية حسبما يقتضي الرقيّ والتطور .

وعند ما يعالج علم السياسة الحاضرَ ، يحاول أن يصف النظريات والنظم السياسية القائمة ويقارنها ويبوّبها ، كما انه يعني فضلاً عن الحاضر بالمستقبل ، أي بما يجب أن تكون عليه الدولة في ما يجيء من الأيام ، بغية تحسين النظم والجهود السياسية على ضوء الأحوال المتغيرة والمستوى الأدبي المتبدل . وهو لهذا دراسة للدولة في الماضي والحاضر والمستقبل ، دراسة للنظم والمهام السياسية ، ودراسة للهيئات والنظريات السياسية . ومن النتائج التي يستقصيها علم السياسة من دراسة الدولة ، يحاول أن يشرح طبيعة الدولة ، ويستنتج أسباب نموها ورقيها وتقدمها .

السياسة باعتبارها علماً

لقد قيل إن علم السياسة ليس « بعلم » بكل ما تشتمل عليه الكلمة من معانٍ ، وذلك لأسباب منها : كبر شأن مادته وتعقيدها ، وصعوبة تطبيق وسائل البحث العلمي الصارمة عليه ، واختلاف الخبراء على وسائله وقوانينـه ونتائجه ، وعجزه عن التنبؤ بالتطورات السياسية في المستقبل . والواقع أن علم السياسة لا يستطيع أن يكون علماً تامـّاً لأن قوانينه ونتائجه لا يمكن صوغها في نصوص دقيقة وافراغها في قوالب مضبوطة ، ولأنه لا يستطيع أن يتنبأ بالأحداث السياسية . أضف الى ذلك أن العلاقات الاجتماعية والسياسية دائمة التغيير وما قد يعد اليوم صائباً ، يصبح في المستقبل خطلاً وضلالاً .

ولو أننا وصفنا العلم بأنه مجموعة من الحقائق أو المعارف تتصل جميعها بموضوع معين تكتسب بالتأمل النظامي وبالاختبار والدرس ، وتحلل وتبوَّب في كتلة واحدة متحدة unified whole ، إذا سلمنا بهذا ، حقَّ لعلم السياسة أن يطـالب بلقب « علم » . ويمكن استنتاج القوانين العامة بدرس مادته درساً نظاميـّا وتطبيق نتائجه عند حل المشكلات السياسية . وكثيراً ما يعصى على السياسيين تطبيق النظريات العلمية تطبيقاً عمليـّا ، فيضطرون الى المصالحة (١) أو « الترقيع » أو الاهتمام بالمصالح الصغيرة المنفصلة ، بدلاً من النظر الى الحـكومة نظرة علميّـة واسعة شاملة . ويرجع ذلك إلى تأثيرات المـاضي أو الأحوال الحاضرة ، وإلى جهـل الجمهور المطبق ، أو الذاتيّـة وحبّ النفس.

و « علم » السياسة الذي يبحث عن دقيق الوصف والتبويب للهيئات السيـاسيةِ ويحدد

---

(١) المصالحة تعبير استعمله الاستاذ أحمد أمين بك ليؤدي معنى Copromise بالانجليزية أي (حل وسط) راجع مقالته عن «المصالحة» في الهلال ، مارس ١٩٣٨ .

القوى التي تخلقها وتحكمها ، يختلف عن « فن » السياسة و « فلسفة » السياسة . ففن السياسة يهدف إلى تحديد قوانين السلوك ومبادئه التي يجب مراعاتها إذا أرادت الهيئات السياسية أن تسير سيراً حكيماً . أما فلسفة السياسة ، أو النظريات السياسية ، فإنها تهتم بالكليّات لا بالجزئيات ، وتبحث في تعيين المبادىء الأساسية والرئيسية . وترمي فلسفة السياسة الفقهية Juristic political philosophy إلى تحديد طبيعة الدولة كأداة تضع القوانين وتنفذها . وتقصد فلسفة السياسة الأخلاقية Ethical political philosoyhy إلى التثبت من طبيعة سلطة الدولة ومجالها على ضوء الأهداف التي وُجدت الدولة لتحقيقها وتَعرّف الدولة وفقاً لأغراضها وأهدافها، ويُحكم على نظمها وأعمالها حسبما تكون درجة بلوغها تلك الأهداف

أساليب علم السياسة

ينبغي على الباحث في الظواهر السياسية أن يعمل دون أن يستعين بالأجهزة الميكانيكية كسائر العلوم ، ولا يستطيع أن يتكهن بالوقائع السياسية الموضوعة تحت البحث ، وليس لهذه الظواهر استجابات في فترات منتظمة ، كما إن المواد العلمية التي يناط بدراستها وبحثها تتأثر بأفعال الأفراد والجماعات، ولا يمكن التنبؤ بها أو توقعها. ويجب عليه كذلك أن يتجنب الحجج الأولية « a priori »(١) والتعاليم الغامضة أو القاطعة القائمة على التفكير الاستنتاجي ومن أساليب بحث الدولة ودراستها ما يلي :

أولا : أسلوب الملاحظة Observation وهو يدرس دنيا الحياة السياسية من جديد . ويحاول أن يكشف حقائق التنظيم الحكومي والنشاط الحكومي ، إما بالاتصال المباشر بالقائمين بهذه الأعمال أو بدراسة الاحصاءات . وينبغي أن يكون « الملاحظ » واثقاً من مصادره وأن يتجنب التعميمات والقياسات السطحية وأن يختبر العلاقة بين الحقائق المختلفة .

ثانياً : أسلوب التجربة . ويجوز استخدامه في حيّز محدود لأن الحكومات ما فتئت تغيّر سياسة الدولة . وكل قانون جديد ، وكل مؤسسة جديدة ، وكل سياسة جديدة ، هي تجربة ، سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه . وقد تؤدي ملاحظة نتائج التغييرات الى إجراء تعديلات جديدة ، وتقليد المجهودات الناجحة ، واستبعاد ما أخفق منها .

ثالثاً : الأسلوب البيولوجي ، وهو يقابل بين الدولة والجسم الحيّ ، ويصف كيان الدولة ويحلل أهدافها وفقاً لمبادىء علمي النبات ووظائف الأعضاء ، ويوجه رقيها حسب نظرية

---

(١) يرى بعض الكتاب أن يترجم a priori « بالحقائق الفطرية أو القبلية » ومن هؤلاء الاستاذ عبد الكريم الناصري . راجع مقال توماسو كمبانلا في الرسالة العدد ٦٤٦

التطور . ويسفر هذا الأسلوب عن مقارنات ذات شأن ، غير انها ينبغي أن تستخدم بحرص شديد لأن قوانين النمو والتحول التي تتحكم في الأجسام الحية لا تنطبق على الدولة .

رابعاً : الأسلوب النفسيّ : وهو يحاول أن يفسر الظواهر السياسية بوساطة المبادىء النفسية ، ولا سيما بدرس الدوافع الكامنة وراء تصرف الانسان وأعمال العقول المجتمعة والمؤتلفة والوسائل التي تؤثر في الرأي العام . وهو يساعد كذلك على شرح الأسس التي تنهض عليها الأحزاب السياسية والتي منها تنبعث المجادلات الدولية .

خامساً : الأسلوب القضائي أو القانوني : وهو يعد الدولة كأنها شركة قانونية وُجدت لوضع القوانين وتنفيذها . ويعدُّ هذا الأسلوبُ المجتمع السياسيَّ مجموعةً من الحقوق والالتزامات القانونية . وهو يحلل علاقات القانون العام بالدولة ، غير انه يتجاهل عدداً كبيراً من القوى الاجتماعية والفوق قانونية Extra-legal التي يرتكز عليها الدستور والقوانين الخاصة بالدولة التي تؤثر في العلاقات بين الانسان وأخيه .

سادساً: الأسلوب التاريخيّ : وهو يضع تعميمات استنتاجية مستخرجةمن دراسة الوقائع التاريخية . ويحاول شرح ماهيّة الهيئات السياسية وما تؤول اليه عن طريق معرفة ماكانت عليه قبلاً ، ودراسة الطريقة التي بها تطورت . وعند استخدام هذا الاسلوب ينبغي على الباحث أن يتحرّى الدقة في اختيار المادة وتحليلها، وأن يتجنب المحاباة والتحامل. وينبغي أن تكون الحقائق التي يجمعها صحيحة، كما يجب أن يكون التفكير في هذه الحقائق منطقيًّا واضحاً .

سابعاً : الأسلوب المقارن : وهو يتصل اتصالا وثيقاً بالأسلوب التاريخي، لأنه يحاول أن يكشف القوانين العامة والقرارات النهائية من دراسة ماضي الدولة بوساطة منهج من الاختيار والمقارنة والاستبعاد . وعند محاولة فحص القضايا العامة فحصاً دقيقاً ينبغي تجنب التشابه السطحي ، وجمع جميع عناصر المشكلة التي تُبحث ، ومراعاة التجاوز في بعض الحالات تجاوزاً معقولاً نظراً لتباين الأحوال أو الظروف .

ثامناً : الأسلوب الفلسفي: وهو يقرّر أن هناك مُثُلاً عالية كاملة، ويستنتج منها النظريات الخاصة بطبيعة الدولة وعملها وأهدافها ، ثم يحاول إيجاد تجانس بين نظرياته والحقائق الواقعة المستمدة من التاريخ والحياة السياسية ، ويغيّر نظرياته كلما لزم الأمر . وخطر هذا الاسلوب يكمن في الاعتماد على أوهام صرف لا علاقة لها بالحقائق العملية . غير أنه إذا عُزز بالملاحظة الصائبة ، والنقد التاريخي ، والدراسة المقارنة ، أصبح ذا قيمة (١)

وديع فلسطين

---

(١) عولنا فى كتابة هذا المقال على كتاب Political Science, By, R. G. Gettell

مكتبة المقتطف

نظرات في الحياة والمجتمع

تأليف الاستاذ علي أدهم — ١٥٠ صفحة من القطع المتوسط — دار المعارف : ١٩٤٥

صديقنا الأستاذ علي أدهم من كتابنا القلائل الذين امتازوا بخلتين هما أوضح ما في العالم وأخص ما في الاديب . أما أوضح ما فيه من خلق العالم فنزعته الى التثبت والدرس والاكباب على البحث والتبسط في الاطلاع ليخرج فيما يكتب بنتائج منطقية أو نظريات لها قيمة حقيقية . أما أخص ما فيه من صفة الاديب فوضوح منهجه وطلاوة أسلوبه وتساوق عباراته رغم ما فيه من تعمق في الفكرة ونزعة نحو التجريد الفلسفي . وإنما نأنس في آثاره الأدبية والاجتماعية هذه الصفات ، لأنها في الواقع انعكاسات حقيقية من خلقه . والأدب اذا انعكس عن صفات خلقية صحيحة بعيدة عن الانتحال والتعمّل والاصطناع ، فهو الأدب المثمر الثابت الأصل الباسق الفرع .

قرأت لصديقي جل ما صدر عن قلمه المرن ، من مقالات أو كتب ، فكانت أوائلها كأواخرها ، أدب صادق التعبير متصل النفس متسق الفكر ، وعلى الجملة كان أدبًا حيًّا فيه من الحياة كل مقوماتها الخلقية بأن تصدر عن نفس اطمأنت للبحث وانصرفت الى الدرس ، وهي بعد في بحر لجي من هموم الوظيفة الحكومية .

أما كتابه هذا « نظرات في المجتمع والحياة » ففيه من اختلاف الصور ما يعبّر أصدق تعبير عن الصور التي استحالت اليها نفسه ، وأصدق ما فيه مما يصدق عليه ، قوله في فصل ممتع بعنوان حيرة المثقف جاء فيه :

« نحن نقبل في الحياة على دنيا قد حفلت بكنوز المعرفة وذخائر الفنون ، وبها نفائس الصور وروائع التماثيل ، وبدائع الموسيقى وغرر التصانيف ومبتكرات الحضارة ومستحدثات

العلوم ، وهذه الصور والتماثيل بنت حضارات منوعة وثمرات عبقريات سامية ومجهودات ضخمة ، وقد صنفت الكتب في أزمنة متباينة ، وبلغات مختلفة ، وهي فيض قلوب كبيرة وصوب عقول راجحة ، وقد تضافرت القرون المتتابعة على تنمية هذه الثروة . ولعل أول واجبات التربية الحقة هو أن تفتح عيوننا على هذه الآثار وتلقننا الاعجاب بها وتبصرنا محاسنها ، وتدنيها إلى قلوبنا ، وتغرس في نفوسنا القدرة على استمرائها والاستفادة منها » .

ولكن يرى الانسان : « قصر الحياة واستهدافها لسلطان المصادفة ، فيظهر له غرور المعرفة وخداع الأمل وعبث الطموح ويستوثق أن مصير آماله الزاهية في الاحاطة الشاملة للأفول، وأن ظمأته إلى المعرفة لن يرتوي لها غليل » ....

هل أتمثلك أيها الصديق بقول الشاعر .

وهت عزماتك عند المشيب وما كان من حقها أن تهي
وأنكرت نفسك لما كبرت فلا هي أنت ولا أنت هي
وإذا ذكرت شهوات النفوس فما تشتهي غير أن تشتهي

كلا : فأنت الأديب الصادق الأدب . وصدق الأدب من صدق الحياة .

الفخري

في الآداب السلطانية — لابن طباطبا

راجعه عوض بك ابراهيم وعلي الجارم بك : نشرته دار المعارف

مؤلف هذا الكتاب مؤرخ باحث ناقد . وهو من أهل الموصل . وقد ألف الكتاب وقدمه لفخر الدين عيسى بن ابراهيم صاحب الموصل في القرن السابع الهجري .

والمؤلف مؤمن بفضل الكتاب ، داع الى الاقبال على الكتب حتى يستخرج الناس من كنوزها حكمة الدهور وفلسفة العصور .

لهذا ألف كتابه لصاحب الموصل ليكون هدياً له في حكمه ونوراً في سياسته ، وعرفه فيه بتاريخ الخلفاء المسلمين الى عصره شارحاً له سياستهم ، عارضاً عليه أحوالهم حتى يتخذ منها عُـدَّة لحكمه وأداة لامارته .

ويمتاز هذا الكتاب بمزيتين : المقدمة الجليلة الخطر التي صدَّر بها المؤلف الكتاب . فهي دستور في سياسة البلاد وحكمها لا يخرم منه حرف ما دامت الناس ناساً والبلاد بلاداً والطباع طباعاً . والثانية ذكر أحوال الوزراء في كل خلافة بعد ذكر الخليفة نفسه ، وفي

ذلك تبصير بأحوال الرجال ووزن الأعمال وموازنة بين الهدى والضلال .

وكان غرض المؤلف من ذلك أن يبصر سلطانه بأخلاق الرجال في كل زمان حتى يختار لنفسه من البطانة من يصح الركون اليه .

وقد كان الكتاب حريًّا من محققيه بكتابة مقدمة عن المؤلف والأمير الذي أهدى إليه والعصر الذي ألف فيه الكتاب والظروف التي دعت إلى تأليفه . ولكنهما اكتفيا بنشر الكتاب . وإذا كان فاتهما ذلك في طبعة سابقة فما كان ينبغي أن يفوتهما في هذه الطبعة الجديدة التي تعد بحق أدق طبعات الكتاب .

الوساطة بين المتنبي وخصومه

حققه الأستاذان محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي

ونشرته دار عيسى البابي الحلبي في ٥٤٥ صفحة من القطع الكبير

شغل المتنبي الدنيا زماناً بشعره ، ولا يزال يشغلها الى اليوم . فقد كتب فيه في زماننا هذا الأساتذة محمود شاكر وطه حسين وعبد الوهاب عزام فشغلوا الناس بعد ألف عام بالمتنبي كما شغل به العرب من ألف عام .

وكان للمتنبي أنصار ، وكان له خصوم . وتعصب له فريق ، وغضَّ من شأنه فريق . ووقف علي بن عبد العزيز الجرجاني من علماء القرن الرابع موقفاً وسطاً بين الفريقين . فكان كتابه « الوساطة » .

وليس (الوساطة) قاصراً على شعر المتنبي وحده . بل انه كتاب للنقد الأدبي العام . والحق انه من كتب النقد الأولى في الأدب العربي . فقد حلل المؤلف فيه أشعار القدماء والمحدثين وعرض للأصول الأدبية في عصره . وتكلم عن البيئة وأثرها في الشعر . وأورد كثيراً من محاسن الشعراء وعيوبهم .

***

وفي المؤلف ذوق جعل موازينه في النقد صحيحة على قدر زمانه . وكفاه فخراً أنه من طلائع النقَّاد في الأدب العربي .

وقد بذل المحققان جهداً كبيراً في مراجعة النصوص وضبط الأعلام . وهو جهد ليس بالضئيل ولا القليل على كتاب نفيس شوَّهه تحريف الناسخين .

اسماعيل

مطبعة دار الكتب المصرية . نشرته وزارة المعارف

أحسنت وزارة المعارف بنشر هذا الكتاب الضخم عن الخديو اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته . فقد أنصفت اسماعيل العظيم وقد ظلمه بعض المؤرخين .

ولم يتهيأ للجيل الماضي أن ينصف اسماعيل ويقدره حق قدره لأن اسماعيل قد سبق عصره وسبق معاصريه وخلفهم وراءه في غبار ركابه ينتقدونه ويسرفون في نقده . فلما تقدم الزمن تقدمت نظرة الجيل الجديد إلى اسماعيل وقام نفر من الكرام يظهرون حسناته على وجهها الحقيقي كما فعل القاضي كرابيتس في كتابه اسماعيل المفترى عليه ، وكما فعلت وزارة المعارف المصرية اليوم .

ولقد صدق رفعة حسنين باشا حين قال مرة أن اسماعيل كالصورة الزيتية لا يُرى جمالها إلاَّ من بعيد . . .

وكتاب اسماعيل أروع ما ظهر في مصر من الكتب من حيث الموضوع ومن حيث الأناقة في الطبع والاخراج وجودة الورق . ولا عجب فهو كتاب الملوك .

وفي الكتاب أبحاث طيبة عن نواحٍ متعددة من اسماعيل في السياسة المالية والتعليم والاصلاح والفتوح والكشف الجغرافي والقضاء وكل أثر من آثار اسماعيل .

اشترك في تأليف الكتاب لفيف من العظماء والوزراء ورجال العلم والأدب بالجامعتين فأفاض كل منهم في الناحية التي تخصص فيها . وجلوا جميعاً اسماعيل في أحسن مظاهره لا كما تحيف عليه السابقون .

والكتاب مصدر بكلمة للدكتور السنهوري وزير المعارف الذي كان له الفضل في اخراج هذا الكتاب على هذه الصورة الأنيقة تحية لذكرى اسماعيل :

البديع

لعبد الله بن المعتز الخليفة العباسي

شرحه وحققه الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي — نشرته مكتبة مصطفى البابي الحلبي —

١٣٥ صفحة من القطع المتوسط

أول من ألف في علم البديع عبد الله بن المعتز الشاعر والخليفة العباسي القصير العمر . وقد جمع منه سبعة عشر نوعاً كما يقول ابن السبكي . وثقافة ابن المعتز ثقافة عربية خالصة لم

تشبها معرفة بالثقافة الأجنبية المنتشرة في عصره . لهذا كان كتابه تمثيلاً للذوق العربي الصُّراح .

وليس من هذا الكتاب إلاَّ نسخة خطية وحيدة في مكتبة الاسكوريال بمدريد . وقد نشرها المستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي سنة ١٩٣٥ باللغة العربية تحت اشراف لجنة تذكار جب الانجليزية .

وتكاد نسخ هذه الطبعة الفريدة تكون نافدة من أسواق الأدب على حين يحرص كثير من الأدباء على اقتناء نسخة من هذا الكتاب .

لهذا قام الأستاذ خفاجي المدرس بكلية اللغة العربية بطبع هذا الكتاب النفيس . وهي أول طبعة شرقية .

ومجهود الأستاذ خفاجي لا ينكر في اصدار هذه الطبعة . فقد شرح الكتاب وعلق عليه . وقابل بين الروايات المختلفة . وترجم للاعلام الكثيرة الواردة في النسخة الخطية . وشرح النصوص الأدبية الواردة فيه . وهذا عمل يقتضي جهداً ودأباً ورجوعاً الى المصادر العربية الأولى وخاصة البيان والتبيين للجاحظ ، وحماسة أبي تمام . وهما أهم مصادر ابن المعتز في عصره .

وليس الاكثار من المحسنات البديعية شائعة في هذا العصر الذي نعيش فيه . ولكن الكتاب على كل حال من الكتب العربية الأولى في البلاغة والنقد .

سعد بن أبي وقاص وأبطال القادسية

٢٢٤ صفحة من القطع الصغير — للاستاذ عبدالحميد جوده السحار — لجنة النشر للجامعيين

من ينكر أثر لجنة النشر للجامعيين في الحركة الأدبية الحديثة ، تلك الجماعة الجديدة التي بدأت في مايو سنة ١٩٤٣ فأخرجت لنا ما يزيد على ثلاثين كتاباً في القصص والتراجم .

وقد بدأ الأستاذ السحار هذه المجموعة بكتابه احمس فكانت طليعة خير ولحنا منه فنًّا قصصيًّا أصيلاً في التاريخ المصري ثم ثنى بكتاب أبي ذر الغفاري . فبلغ من التهافت عليه أن أعيد طبعه .

وسعد بن أبي وقاص دراسة تاريخية لبطل القادسية على نحو قصصي يحبب العرب في تاريخ أبطالهم .

ولو قد كتب لتاريخ ابطالنا أن يكتب على هذا النحو لخرج منه العرب بخير كثير .

فقد تابع المؤلف سعداً في بدء عهده بالاسلام وفي اضطهاد قريش للمسلمين ، وفي أول سهم انطلق عن قوس سعد فكان أول سهم انطلق في الاسلام ؟

وفي أول معركة للاسلام صال فيها سعد بسيفه فانجلت عن نصر عظيم وفتح مبين .

والكتاب يغري كل فصل منه بقراءة لاحقه ، فلا يحبس القارىء نفسه حتى يتم الكتاب على نحو رفيع من القصص التاريخي .

قناة السويس

تعريب الأستاذ أحمد خاكي . سلسلة الفكر الحديث
لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٨٢ صفحة من القطع المتوسط

تحتل قناة السويس مركزاً هامًّا منذ منح دلسبس عقد امتيازها في أيام سعيد الى وقتنا هذا .

وقد كانت لايطاليا مطامع في القناة قبل قيام هذه الحرب العالمية الثانية وخاصة بعد أن غزت الحبشة واستولت عليها . وكانت ترمي الى أن تشترك في ادارة القناة وتطالب بامتيازات في المعاملة .

لهذا قام المستر هيو سونفيلد بالرد على مزاعم ايطاليا ودعايتها مضطرًّا الى بيان وجهة النظر المصرية بوصف أن القناة ملك لمصر وهي صاحبة الحق الأول فيها .

والكتاب وصف تاريخي للقناة وخاصة في الفترة بين ١٩١٨ ، ١٩٣٨ — وقد تناول فيه المؤلف فصولاً عن القناة واستقلال مصر ، وما استعادته مصر من القناة ، ومشكلة البحر المتوسط ، وصيانة القناة ، وتنظيم المرور فيها ، ونمو الحمولة التي تمر بالقناة وأثرها في التجارة العالمية .

وأقوى فصول الكتاب هو ما يدافع فيه المؤلف عن وجهة النظر المصرية أمام دعاية ايطاليا .

ولقد زاد المترجم باباً برمته عن مصر وقناة السويس من تأليفه هو لا من الأصل الانجليزي .

ويذكر المترجم انه لم ينشر قبل هذا الكتاب مؤلف واحد باللغة العربية في موضوع القناة ، ولكننا نذكره بكتاب « الحقيقة في مسألة قناة السويس » للدكتور انجلو ساماركو وتعريب الاستاذ طه فوزي المطبوع بمصر سنة ١٩٤٠ (١)

---

(١) وللمرحوم طلعت حرب باشا كتاب فذ بالعربية عن « قناة السويس » وآخر لعزيز خانكي بك

خادمك المليونير

للاديب عثمان نويه — مكتبة نهضة مصر — ١٤٠ ص من القطع المتوسط

قصة تصور ألواناً من المجتمع المصري ، وألواناً من الشخصيات بعضها يثير الضحك وبعضها يثير البكاء .

وللكاتب ريشة تجيد التصوير وفي أسلوبه العربي صحة ووضوح وتصريف للعبارات فما باله يؤثر العامية في كثير من مواطن الحوار .

نعم أن بعض شخصياته لا ينتظر منها حوار في لغة فصيحة ، ولكن كان يستطيع أن يبسط الحوار في ثوب عربي بدلاً من هذه العامية البغيضة .

محمد عبد الغني حسن

فن القصص

تأليف محمود تيمور بك — ١٣٦ صفحة من القطع المتوسط — مجلة الشرق الجديد

الأستاذ محمود تيمور بك يتصدَّر كتَّاب القصة في الشرق ويقفز اسمه في طليعة الأسماء التي عالجت هذا الضرب من فنون الأدب . ولا عجب إذا كان صديقنا الاستاذ نزيه الحكيم قد أطلق على تيمور بك لقب « رائد القصة العربية » بعد ما درس أقاصيصه ومسرحياته دراسة وافية تقوم على أسس علمية سليمة .

ومن أحدث التواليف التي أخرجتها المطبعة للأستاذ تيمور بك « فن القصص » وقد عالج فيه كثيراً من المشكلات التي تعترض أقلام القصَّاص والأدباء . فبحث في صدر كتابه قضية اللغة العربية وعرضها عرضاً مفصلاً من جميع جوانبها وخرج بنتائج كبيرة الشأن . وتحدَّث عن فن القصص ، ونشوئه ، وقصص العرب ، والقصص المصري الحديث ، والقصص الفنّي ، وأثر القصص في تربية الشعب ، ونصيبه من مشكلات المجتمع ، والقصص المسرحي والسينميّ ، ولغة المسرح ، وعوامل النجاح في تنشئة القاصّ ، ومستقبل القصص ، وأورد في نهاية الكتاب نماذج ثلاثة من أحدث أقاصيصه .

وفي المبحث الأول تصدّى المؤلف لقضية اللغة العربية وهي المشكلة الأولى التي تواجه حملة الأقلام في الشرق . فما فتئ الكتّاب يعيبون على العربية جمودها وعدم مسايرتها للتطور والتحوّل الدائمين ، وينكرون عليها الكلمات الجديدة التي تسللت اليها في السنوات الأخيرة .
(ومن أجود المباحث الحديثة التي عالجت قضية اللغة العربية بافاضة كتاب صديقنا الأستاذ

سلامة موسى « البلاغة العصرية واللغة العربية » وقد تناولناه في عدد سابق من المقتطف)[1] وما برح كتّاب المسرحية ، يتردّدون بين استخدام العامية والفصحى ، والى أيهما ينحازون ، وأيهما يرضى بها القارىء ، وأيهما يرضى بها الناظر . أيجنحون الى استخدام العامية — لأن العامية لغة كلام بينما الفصحى لغة كتابة ، والشقة بين اللغتين واسعة — أم يكتبون حوار مسرحياتهم بالفصحى لأنها أبلغ وأروع ، فضلاً عن انها هي في الواقع اللغة الصحيحة دون سواها . وهل يُعدّ استخدام الفصحى في كتابة المسرحية تكلفاً غير طبيعيّ ، أم يُعدّ ضرورة ينبغي على الروائي الأديب أن يلتزمها ولا يحيد عنها لأن عداها لا يُعتبر في عُرف الأدب فنّاً .

***

هذه مشكلات لا ريب في أنها تواجه الذين يُقدمون للمرة الأولى على ممارسة الأدب المسرحي والقصصي . ولقد لمست تلك المشقة بنفسي عند ما عوّلت على نقل مسرحية « الأب » للكاتب السويدي الكبير أوجست سترندبرج [2] إلى العربية ، وآثرت بعد كبير تردد استخدام اللغة الفصحى لأني رأيت أن استخدام العامية نوع من الاستهجان والضعف . وفي علاج هذه المشكلات يقول صديقنا تيمور بك إن اللغة يجب أن تتطوّر وتماشي العصر الحديث . « ويحسن أن يكون موقفنا في مسألة المعرّب والمولّد موقف مرونة وموازنة وتقدير لملابسات كل لفظ ومدى الحاجة إليه ، فلنشتق ، ولنستضف من العامية ، ولنستحي القديم من الألفاظ ، ولنعرّب الأجنبيّ متوخين في كل ذلك الحكمة . وحريٌّ بنا أن ندع ذلك للهيئة اللغوية المشرفة ، على أن تراعي سهولة الألفاظ وموسيقية الحروف ، وخفة الصيغة على السمع . ومن أمثلة الألفاظ الدارجة الموفّقة « العجلة » « والتسريحة ... »

ويرى تيمور بك لعلاج مشكلة اللغة العربية إجمالاً اتخاذ إجراءات ثلاثة . أولها : تزويد اللغة بألفاظ وتعبيرات جديدة بعضها أجنبي ، وبعضها من القديم المُستحيي ، وبعضها من العاميّ ، وبعضها من المشتقّ ، وبعضها من المعرّب . وثانيها : تبسيط اللغة بالاقتصار على الألفاظ المألوفة المأنوسة دون غوص على المهجور المجفوّ من الكلام . وثالثها : تيسير النحو بتصفيته والاقتصار على جوهره وحذف ما لا يطابق النموّ العصري للغة . ورابعها : تعميم الضبط في كل ما يكتب ويطبع حتى يشبّ النشء منذ حداثته على القراءة قراءة صحيحة لا مأخذ عليها . وأعرب عن أمله في أن يوفق الباحثون الى كشف نوع من الضبط أيسر

---

(١) عدد يوليو ١٩٤٥ (٢) نشرتها لجنة النشر للجامعيين — مكتبة مصر بالفجالة.

تداولا من الضبط الحالي ، يسهل تعميمه في جميع دور الطباعة — حتى مطابع الصحف والدوريات — بحيث لا يجد عمال صفّ الحروف أو القرّاء مشقة في أداء مهمتهم .

وبعد ما فصّل الأستاذ تيمور قضية اللغة العربية ، انتقل إلى الحديث عن فن القصص حديث خبير تفهّم صناعته وسبر أغوارها ، وقابل بين الأقصوصة والقصة والرواية والحكاية والمسرحية ، وحدّد قواعد كتابة القصة ، وسرد نصائح للمبتدئين في ارتياد هذا الفن من الكتابة ، وبيّن كيف يؤثر القصص في تربية الشعب ويعالج مشكلاته ، وعرض وجهات النظر جميعها في كل من هذه المشكلات ، واستخلص آراءه في نهاية كل فصل ، وهي في جملتها آراء يغلب عليها السداد والرجحان .

***

والقاصّ القدير الممكّن يستطيع دون مشقة أن يضع نفسه موضع شخوصه ، ويحس إحساسهم وشعورهم ، ويفكر تفكيرهم ، ويتصرّف تصرفهم ، ويتلفظ بألفاظهم ، سواء كان الشخوص أباطرة أم أدنياء ، من الانس كانوا أم من الجن ، أم من الأرواح الهائمة . ويجلو تيمور بك مقدرته هذه بالأقاصيص الثلاث التي أدرجها في القسم الأخير من مشتمل كتابه . فالأقصوصة الأولى « على المشنقة » وصف نفسي دقيق للحالات النفسية التي تنتاب مجرماً أثيماً ينتظر بين لحظة وأخرى تنفيذ حكم الاعدام فيه . ولعلي لا أبالغ إذا قلت إن تيمور بك عرف هذا المجرم معرفة قرب ، ولازمه في صومعته ، فلم تغب عنه فكرة خطرت بذهن الأثيم ، ولا أفلتت من قلمه رؤيا عابرة مرت أمام مخيلته .

وأقصوصة « إحسان لله » لا يستطيع أن يكتبها إلاّ رجل عاش بين المتسولين ، وعرف أساليبهم في الاستجداء ، وتكفف النـاس ، ودخل الى صميم نفسياتهم ، وعرف خباياها وطواياها واتجاه تفكيرها .

والأقصوصة الثالثة « في ظلمة الليل » أسطورة قديمة تكشف بدورها عن مقدرة تيمور بك على تعاطي ضروب شتى من القصص .

وبعد ، فكتاب « فن القصص » سفر جليل ، زاخر بالآراء التي تكشفت لتيمور بك بعد مطالعة وممارسة أربت على ربع قرن : وجميعها جديرٌ بالتقدير ، خليقٌ بالاعجاب .

وديع فلسطين

العلم الالماني أصوله ومراميه

« تابع المنشور على الصفحة ١٦ »

إذن لم ينحرف العلم عن قصده الانساني ، ولم يطلق رسالته الخالدة في خدمة الحقيقة والمعرفة والسعادة البشرية صدفة ، أو بحكم الظروف المحيطة به . ولكنه تحوّل بربريًّا وحشيًّا خاضعاً لأوامر العاطفة الجارفة ، مسوقاً بأهدافها المضللة ، عن قصد وتعميم . وكانت تستعر فيه نيران الحقد والتكالب في كل أدوار نضاله المتكتم المتستر ، حتى دارت رحى الحرب ، واصطلى بنارها العالم ، فاذا هو قد أعدّ بهذا الصراع الأسلحة العمياء ، كالالغام المغنطيسية ، والقنابل الطائرة ، والصواريخ الصاعقة وأراغين الشياطين . . .

ألا يستغرب خضوع العلماء النازيين لأوامر الوحشية والطغيان ، مع ان العلماء في كل جيل وقرن حملة مشاعل النور ، وسدنة الحرية الفكرية ، وأقوى المتعصبين ايماناً بحق الانسان في الحياة . لما سئل العلاّمة ماكس بورن عن الأسباب أجاب بما ملخصه : ان ذلك يعود في أقوى أسبابه الى نقص في التراث الديمقراطي ، ونقص في التدريب الخلقي ، فالاختصاص — أي عزل أقسام المعرفة في سجون محكمة — وصل عند العلماء الالمان درجة خطرة أصبح هؤلاء فيها ضيقي الأفق ، لايشعرون بقوتهم ، وقيمة رأيهم ، إلاّ في ميادينهم الخاصة . وانهم ليفقدون الثقة بالنفس كلما خرجوا منها . وتسودهم العقيدة بأن لكل بحث ثقاته المختصين المدركين للامور ، المحيطين بها أكثر منهم . ولذلك يفضل كل فرد منهم أن يتحمل مسئولية الأعمال الأخرى غيره من الناس . فاذا ما نصب شخص نفسه خيراً سياسيًّا (فوهرراً) لقي أقل المقاومة والمعاكسة ، واتجه اليه أرق النقد ، لا بل قدّمت بين يديه كل شعائر الولاء والاحترام والتقديس .

ولا ننسى أيضاً أن النازي طهّر البلاد من العلماء الأحرار ، وقذف بهم إلى الخارج ، وأحلّ محلهم الشباب المتحمس المؤمن بمبادئه . وأما من حدّثته نفسه بعد ذلك بالخروج على النظام ، أو فضح الأسرار العلمية ، فقد كان الجستابو سيفاً مصلتاً فوق رأسه . وشبحاً مرعباً يقض مضجعه . وإن لذلك العالم في السجون ومعسكرات الاعتقال مكاناً فسيحاً يذوق فيها أمرّ ألوان التحقير والتعذيب ، وأقسى أنواع الازدراء والتنكيل .

اننا ننظر الى المستقبل بعين التفاؤل ، ونرجو أن لا يلعب العلم مرة ثانية دوراً قهريًّا وحشيًّا ، ونرجو أن يحقق التعاون العلمي بين الشعوب أحلام السعادة ، ويحرر البشرية من العوز والفاقة والمرض والجهل .

السلط — شرق الاردن خليل السالم

فهرس

الجزء الاول من المجلد الثامن بعد المائة

١ سلامٌ على الصحراء : مهداة الى عاهل الجزيرة العربية : اسماعيل مظهر
٢ مجمع اللغة العربية في بعض مصطلحاته الحديثة : اسماعيل مظهر
٩ العلم الألماني : أصوله ومراميه : خليل السالم
١٧ أساس القانون الدولي وطبيعته ومستقبله : صلاح الدين الشريف
٢٢ الرأي العام الاجتماعي في مصر : محمد الديب
٢٦ الدعاية : أسباب نجاحها : سليم تاوضروس الأسيوطي
٣٢ البزّ : الأب انستاس ماري الكرملي
٤١ غرام بين أديبين : الفريد دموسيه وجورج صاند : حليم متري
٥٠ مكافحة الأمية ونشر الثقافة الشعبية : عبد الله امين
٥٦ أحساب الدولة الفاطمية : عطية مصطفى مشرفة
٦٠ المدرسة الخاتونية البرانية بدمشق : السيد محمد رجب
٦٦ علم السياسة طبيعته وأساليبه : وديع فلسطين

٧٠ مكتبة المقتطف * نظرات في الحياة والمجتمع . الفخري في الآداب السلطانية . الوساطة بين المتنبي وخصومه . البديع . اسماعيل . سعد بن ابي وقاص . قناة السويس . خادمك المليونير : محمد عبد الغني حسن . فن القصص : وديع فلسطين

لحق بالمقتطف

١ — ٤١ فك الأغلال : بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية : بمناسبة عقد مؤتمر التعليم : لاسماعيل مظهر